# الباب الثاني

# الخطابة

## أ- تمهيد

في الجزء الرابع من هذه السلسلة - وهو النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة - ذكرنا أن الشعر في العصر الجاهلي كان فوق النثر، وأن الخطباء حاولوا أن يجاروا الشعراء في ميدان البيان، وأن يبزّوهم في المحافل والأسواق، فلم يبلغوا شأوهم، ولم يبرعوا براعتهم. أو لعلّهم برعوا وأبدعوا، لكن ما أبدعوه أصبح عرضة للضياع، فنُسِيَ كثيرهُ، وحُفظ يسيره، لأن الموزون أعلقُ بالذاكرة من المنثور.

فإن أبيت إلا أن تبرئ الذاكرة العربية من النسيان، فلك أن تعلِّل كثرة الشعر وقلة النثر بعلة أخرى، وهي أنّ قلوب العرب في العصر الجاهلي طغت على عقولهم، فكان للعواطف المتأججة، لا للحكمة الرزان، الأثرُ الأكبر في تفكيرهم وسلوكهم. ولما كان الشعر لغة العاطفة، وكان النثر لغة العقل فإن ما نثروه - والخطبُ بعضُ ما نثروا - كان دون ما نظموه، ولهذا قلَّتِ الخطب أو ما بلغنا منها، وكثرت القصائد والأراجيز، حتى غدا الشعر ديوان العرب.

ثم أخذ الخطيب ينازع الشاعر قصب السبق مسلّحاً بسلاحين: فكري وخلقي. أما الفكري فهو نضج الأدب العربي، وغلبة النزعة العقلية عليه،

ولاسيما المنثور منه. وأمَّا الخُلقي فهو اعتصامُه بالترفُّع والتعفُّف بعدما نزل الشاعر إلى التكسُّب والتزلّف.

قال ابن رشيق[١]: «كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر، وشدة العارضة، وحماية العشيرة، وتهيُّبهم عند شاعر غيرهم من القبائل. فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته. فلما تكسبوا به، وجعلوه طعمة، وتولوا به الأعراض، وتناولوها، صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة، وتطعَّموا أموال الناس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنت بهم دار الذلة، إلَّا مَنْ وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها».

ومع بزوغ الإسلام جدَّت أحوال، ونجمت عوامل، ارتقت بالخطابة، وجعلت هذا الجنس الأدبي النديد العتيد للشعر، يُجاريه ويباريه، فيسبقه حيناً، ويلحقه حيناً، لكنه لا ينكص على عقبيه، ولا يقرُّ لخصمه بالفوز، بل يسير معه في قَرَن، فلا يدري من يراقبهما أيُّهما التابعُ، وأيهما المتبوع في مُعْتَرك التنافس الصاخب:

أول هذه العوامل نضجُ العقل العربي الذي استلهم من الإسلام تصوراً شاملاً للكون وللحياة، وسّع به آفاق المعرفة، وشحذ قوة التفكير، وطوّر وسائل التعبير، ثم رفد الخطباء بأفكار وقيم يدعون إليها.

وثانيها حركات الارتداد التي أعقبت وفاة النبي ﷺ، وما نجم عنها من انبعاث البقية الباقية من الوثنية المهزومة، ويقظة الحمية القبلية التي أفاقت تقارع بالعصبية البغيضة الوحدةَ القومية، وتسخّر في هذا الصراع ألسنة الشعراء والخطباء.

وثالثها موجةُ الفتوح الآخذة في الاتساع التي أنطقت حناجر الخطباء بالدعوة إلى الجهاد في ميادين القتال.

ورابعُها الفتنة الكبرى التي أراقت دم عثمان، وفرَّقت الأمة المترابطة، وجعلتها شيعاً، تتطاعن بألسنة الخطباء والشعراء، كما تتطاعن بأسنَّة المتنازعين.

---

(١) العمدة ١/ ١٨٢.

تُرى أظلَّت هذه العوامل تعمل عملها في إثارة القلوب والألسنة بعدما حكم الأمويون أم أخمدها الحكم المستقرّ؟ وهل ظهرت في الدولة المروانية عوامل أخرى أثّرت في الخطابة؟ وما هذه العوامل؟

## ب- من عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي

قد يخطر لك أن أربعة العوامل السابقة الذكر قد خبا أوارها حينما استقرّ الأمر لبني أمية، وأن ألسنة الخطباء أمسكت عن الدعوة إلى الثورة ببني مروان، وأن جذور الردة اجتثت، ونار الفتنة أخمدت، وموجة الفتوح بلغت غايتها بعدما اصطدمت في الشرق بسور الصين، وفي الغرب بجبال البرانس، وفي الشمال بجبال طوروس، وفي الجنوب بالمحيط الهندي.

إذا أغفلت عامل الردة وجدت أن ثلاثة العوامل الأخرى التي حركت ألسنة الخطباء في عصر النبوة والخلافة الراشدة لم تضعف، بل استمرَّ مريرها، واشتدّ تأثيرها، وتزيّا بعضها بأزياء جديدة، لكنها لم تفقد قدرتها على التأثير والتفجير في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية.

فالعقل العربي ازداد نضجاً باتساع المعرفة وعمقها، ونضجُه تجلّى في ارتقاء الخطابة معنى ومبنى. وحركة الفتوح فترت، ولم تتوقف، إذ اتخذت سبيلها في البحر سَرَباً لتقارع الروم على أسوار القسطنطينية، واخترقت جبال البرانس لتصارع الفرنجة في بلاط الشهداء، وخوضُ المعارك البحرية والبرية ألزم القادة أن يخطبوا ليحرضوا الأجناد على الجهاد.

ونار الفتنة لم تنطفئ بمقتل المختار الثقفي، وصلب عبد الله بن الزبير، بل تحولت إلى ضربين من البراكين: ضرب ظاهر ثائر، يفجره الخوارج في أمكنة وأزمنة مختلفة، وضرب خفيّ، لكنه عتي، يضرم الشيعة جمره تحت رماد التقية المتنمرة للثأر. والضربان معاً كانا من أقدر العوامل على الارتقاء بالخطابة فكرة وعاطفة وأسلوباً.

والعصبية القبلية التي قمعت بالقضاء على حروب الردّة استيقظت مرة أخرى، وتردّت زيّاً جديداً، إذْ أضرم نارها الأمويون أنفسهم ليحاربوا القبائل

المعارضة بالقبائل المؤيدة، ويصرفوا ألسنة الشعراء والخطباء عنهم بأن يُشْلُوا بعضهم على بعض.

ولك أن تضيف إلى العوامل السابقة عوامل أخرى، أبرزُها ظهورُ الفرق الدينية التي سخَّرت المنابر والحناجر للدعوة إلى ما تعتقد أنه الحقّ. ووفود الرُّسل والبعوث من القبائل إلى الخلفاء والأمراء، لينافحوا عن مصالح أقوامهم بألسنة الشعراء والخطباء. وانبثاق العلوم الدينية واللغوية من الكتاب والسنة، ومن التراث العربي القديم، وهذه العلوم رفدت الخطابة بمعين ثرّ من الأفكار والمصطلحات الجديدة، وأخذت تحوّل الجوامع إلى جامعات، والمجالس إلى مدارس، تحفل بالمحاضرات والمحاورات، والأدب والخطب.

إن هذه العوامل مجتمعة هيأت للخطابة في العصر الأموي أسباب النموّ والسموّ، فتعدّدت أنواعها وأغراضها، وارتقت معانيها، وازدهرت أساليبها، واتضحت سماتها الفنية. وحمل تطوُّرها وازدهارُها أهل النظر من النقاد على أن يستنبطوا مما سمعوا وممَّن سمعوا شروط الخُطْبة المُثْلى وصفات الخطيب الأمثل.

فما هذه الشروط والصفات؟

## جـ- آراء القدماء في الخطبة المُثْلى

حرص الخطباء القدماء على تجويد الخطب حِرْصَ الشعراء على تجويد المعلقات. وربما كان الطابع العقلي الذي يميز المنثور من المنظوم، ويطغى على الكلام المرسل فوق طغيانه على الموزون المقفى قد حمل الخطباء على الاحتكام إلى المنطق، فنسَّقوا ودقَّقوا، وفصّلوا وعلَّلوا، ولم يسمحوا لداء الارتجال، وتطوُّح الخيال أن يُصيبا كلامهم بالتشعُّث، وعقلهم بالتنقُّل بين الأفكار المتباعدة، والأغراض المتعددة على النحو الذي تلقاه في المطولات من القصائد.

وفي «البيان والتبيين» درس أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ [ت: ٢٥٥هـ] خطب القدماء، واستعرض آراء النقاد فيها، وخرج ممَّا درس بقواعد وضوابط، تطابق ما يلاحظه القارئ في خطب العصر الأموي، كأنَّ عوامل التطور

والازدهار التي أشرنا إليها كانت قد ارتقت بفن الخطابة لدى الخطباء الأمويين، وجعلته ذا رسوم تُلْتَزم. ثم جاء النقاد، فرأوا آراءهم فيه، وتعقب الجاحظ هذه الآراء، واستخلص منها ومن الخطب ما استخلص، ونوَّه به، لكنه لم يعزه إلى الأمويين خاصة، بل عزاه إلى القدماء عامة. والرأي عندنا أن ضوابط الجاحظ وقواعده إلى خطب العصر الأموي أقرب، وبخطب الحجاج وزياد ابن أبيه أشبه.

وحَسْبُنا ههنا أن نضع بين يدي القارئ فقرات ممَّا جاء في كتب الأدب والنقد القديمة - وكثيرٌ منها معزوٌّ إلى ابن المقفّع [ت: ١٤٢هـ] - ثم نُخلّي بينه وبينها، لكي يستنبطَ منها الرسوم التي استنبطها القدماء، فإذا هي منهج ذو سمات واضحة تحدّد قسمات الخطبة المُثلى. روى الجاحظ ما قال ابن المقفع في الخطابة، فقال[١]:

«فأما الخُطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثارُ في غير خطل، والإطالة في غير إملال. وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيتُ الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته». ثم علَّق على كلامه فقال: «كأنه يقول: فَرِّقْ بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب، حتى يكون لكلٍّ فن من ذلك صدرٌ يدلُّ على عجزه. فإنه لا خير في كلام لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت».

من كلام ابن المقفع وتعقيب الجاحظ تستطيع أن تستنبط بعض الرسوم[٢] التي التزمها الخطباء القدماء، ثم أقرَّهم عليها النقاد، وجعلوها سنة متبعة، لا تحسن الخطب إلا إذا تهدَّت بهديها، وترسّمت أصولها.

**أول هذه الرسوم** تقسيمُ الخطب وفق أغراضها إلى أقسام متمايزة، ونسجُ كل قسم منها على منوال لا يصلح إلا له، وبلغة يتفرّد بها من سواه. فلخطبة الزواج أسلوب، ولخطبة التهنئة آخر، ولإصلاح ذات البين ثالث.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

(٢) انظر البيان والتبيين ١/ ٤٤- ٦٢- ٧٩- ٨٩- ٩١- ١٠٥- ١١٦- ١١٨- ١٣٤- ٢١٥- ٣٠٣ و٢/ ٦- ٧- ٨، و(أسس النقد الأدبي عند العرب)/ ٦٣٩ وما بعد.

**وثاني الرسوم** تجويد المقدّمة، وتحديد فكرة الخطبة بها، والحرصُ على أن تشي بالغرض، وتفصح عن القصد، وتعبّر عمَّا يعتزم الخطيب عرضه، وتُعين السامعين على أن يتوقَّعوا الكلام قبل خروجه من الفم، لأن التوقُّعَ يشدُّ الآذان إلى اللسان، ويضمن استمرار التواصل بين الجمهور والخطيب من بداية الخطبة إلى نهايتها.

**وثالث الرسوم** الاكتفاءُ بالإيجاز إذا تحقَّق به الإنجاز، أو الاعتدالُ بلا إخلال، أو الإطناب بلا إملال. وللإيجاز والاعتدال والإطناب مواضع يحسن بالخطيب أن يراعيها، وألّا يكترث بعامة الناس، ممَّن لا يعون ما يسمعون، لأن الحكم في هذه الصناعة للقلّة من أهل البصر بالفصاحة والبلاغة، لا للكثرة من السوقة والدهماء. قال الجاحظ[1]:

«قال: فقيل له: فإن ملّ السامع الإطالةَ التي ذكرتَ أنها حقُّ ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كلَّ مقام حقَّه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت مَنْ يعرف حقوق الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتك من رِضى الحاسد والعدوّ، فإنه لا يُرضيهما شيءٌ. وأمَّا الجاهلُ فلست منه وليس منك. ورضى جميع الناس، شيءٌ لا تناله. وقد كان يقال: رضى الناس شيءٌ لا يُنال».

**ورابع الرسوم** في الخطبة المُثلى - مهما تطلْ - براءتُها من الإعادة والتكرار. فالتطويل لا يعني اجترار فكرة واحدة بألفاظ مترادفة، وإنما يعني تفسير الغامض، وبسط الموجز. والتطويل قد يفضي إلى التعليل، لإقناع السامع بحجج وأدلة تدحض باطلاً، وتقرُّ حقّاً. ولهذا لم يأخذ النقاد على الخطيب أن يأمر بمعروف وينهى عن منكر، ولو كان الأمر بفضيلة يتضمَّن النهي عن رذيلة تخالفها. والنقاد علَّلوا هذا الرسم تعليلاً منطقياً، وهو أن غاية الكلام الإفهام، ومن يندب نفسه لإفهام الناس فعليه ألا يقنع بالتلميح، وهو على التصريح قادر. قال الجاحظ[2]:

«إن قيس بن خارجة بن سنان لمَّا ضرب بصفيحة سيفه مؤخّرة راحلتيْ الحامليْنِ في شأن حمالة داحس والغبراء وقال: ما لي فيها أيّها العَشَمَتان؟

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٦.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٦.

قالا له: بل ما عندك؟ قال: عندي قِرى كلِّ نازل، ورضى كلِّ ساخط، وخطبةٌ من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمرُ فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع. قالوا: فخطب يوماً إلى الليل، فما أعاد فيها كلمة ولا معنى. فقيل لأبي يعقوب: هلَّا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع؟ أوليس الأمرُ بالصلة هو النهيَ عن القطيعة؟ قال: أوما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف؟».

**والرسم الخامس** الجمعُ بين الفطرة الموهوبة والخبرة المكسوبة، وصقل الطبع بالصنعة، ورَفْدُ القدرة على الارتجال بالإعداد المتأنّي الذي يُتيح للخطيب أن يتخيَّر أفصح المفردات، وأجمل العبارات، وأن يقدّم الأجود على الجيد، على ألَّا يفضي به التخيُّر إلى التكلُّف، والصنعة إلى التصنّع. قال الجاحظ[١]:

«رأسُ الخطابة الطبع، وعمودُها الدُّرْبة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه».

**والرسم السادس** أن تراعي الخطبة مستوى المخاطبين، وَفْقَ القول المأثور: لكل مقام مقال. فلا تحلّق في سماء البيان إذا خاطبت عامة الناس، ولا تُسِفُّ إسفاف القَصّ إذا خاطبت خاصة العلماء. وهذه القاعدة تعني أن السامع لا المتكلم هو الذي يحدّد معاني الخطبة ومبانيها، لأن ما يصلح لأهل الحاضرة لا يصلح لأهل البادية، وما يخاطب به الملك لا تخاطب به السوقة، وما يفهمه العرب الأقحاح يعيا بفهمه المولّدون والمستعربون.

قال بشر بن المعتمر[٢]: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات».

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٤.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٨.

وقال صاحب نقد النثر[١]: «ليس ينكر أن يكلَّمَ أهلُ البادية بما في سجيتها علمُه، ولا ذَوُو الأدب بما في مقدار أدبهم فهمُه. وإنما ينكر أن تكلم الحاضرة والمولدون من الغريب بما لا يعرفون. وبما هم إلى تفسيره محتاجون، وأن تكلم العامة السخفاء بما تكلم به الخاصة والأدباء» ثم علل ما ذهب إليه، فقال: «إن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل، فإذا كلمه بما لا يعرفه، فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها».

وهذا الرسم ينبغي تقييده بقيد، لا سبيل إلى التملّص منه، وهو تحريم المفردات والعبارات العامية مهما يكن المسوغ الذي يسوغ به الخطيبُ ما يستعمله منها. ولإنصاف القدماء من كتاب وخطباء ونقاد نقول: لم نجد بينهم إلا نفراً انتهكوا حرمة الفصحى ببعض العامية، أبرزُهم الجاحظ في النوادر والمضحكات لا في الخطب، وحجته الحفاظُ على أسرار الإضحاك والسخرية، وبشر بن المعتمر [ت: ٢١٠هـ] الذي زعم أن استعمال الكلمة العامية في مخاطبة العامة مباح، وأن اللفظ العاميّ في موضعه كاللفظ الخاصّ في مكانه.

**والرسم السابع** أن تبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على نبيه، وأن تتضمن آيات من كتاب الله، إمّا للتبرّك بها وإسباغ الصبغة الدينية على أفكارها، وإما للاحتجاج بما فيها من أحكام وتشريع وقيم يظاهر بها الخطيب رأيه. ولهذا سموا خطبة زياد ابن أبيه البتراء لأن هذا القيد بتر منها، وأخذوا على عمران بن حطان أنه لم يعطر خطبته بشيء من الذكر الحكيم، قال الجاحظ[٢]:

«كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن. فإن ذلك ممّا يورث الكلامَ البهاءَ والوقارَ والرقة وسَلَسَ الموقع. قال الهيثم بن عدي: قال عمران بن حطّان: إن أول خطبة خطبتُها عند زياد - أو عند ابن زياد - فأعجب بها الناس، وشهدها عمّي وأبي. ثم إني مررتُ ببعض المجالس، فسمعتُ رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن».

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب/ ٦٤٢.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨.

**والقيد الثامن** الوضوح، وفسّر القدماء الخطبة الواضحة تفسيراً طريفاً، فقالوا: هي التي يسابق معناها لفظها، ولفظها معناها، فلا يعيا السامع بتلقيها. وعلّلوا هذه الظاهرة بخلوّ الكلام من الغريب، وبوضع الألفاظِ في مواضعها، وبالدقَّة في اختيار المفردات، ومجانبة ما اصطلح عليه أهل كلّ علم من العلوم التي بدأ العصر الأموي يستحدثها، فلا يفهمُ معانيها إلّا من أصابوا حظوظاً من هذه العلوم.

ومثلوا للغموض الناجم عن إقحام مصطلحات النحو في المحاضرات بطرائف؛ منها أن أعرابياً سأله قومه عما شهد في البصرة - وكان قد رأى حلقة من حلقات النحو في بعض مساجدها فلم يفهم ما سمع - فقال: رأيت قوماً يتكلّمون عن كلامنا بشيء من كلامنا وليس من كلامنا.

**والرسم التاسع** التمثُّلُ بالأمثال والأقوال السائرة بين العرب. أما الاستشهادُ بالشعر في الخطب فَمُخْتَلف فيه. فالحجَّاج ضمَّن خطبته المشهورة في مسجد الكوفة مقطَّعات من الرجز، والحسنُ البصريُّ كان يتمثل في مواعظه بقول عديّ بن الرعلاء الغسَّاني:

**ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنّما المَيْتُ ميِّتُ الأحياء**

والجاحظ يقول(١): «وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خُطبهم الطوال بشيء من الشعر».

**وعاشر الرسوم** وحدة الفكرة وترابطها. وربما كان هذا الرسم أحبَّ الرسوم إلى السامع، وأشقها على المتكلم، لأن التزامه يلزم الخطيب أن يُعد خطبته إعداداً مكتوباً يضبطه يراع وقرطاس، لا ذاكرة يعرض لها الضعف والنسيان، وكتابة الخطب لم تكن معروفة في العصر الأموي.

وإذا كان الرسم الثاني قد قضى بأن تبوح مقدمة الخطبة المجملة بأفكارها المفصلة، فإن هذا الرسم يقضي بأن تتعاقب الأفكار من بدايتها إلى نهايتها تعاقباً مترابطاً، فتنتظم في سلك من المنطق كما تنتظم حبات الدرّ في خيط يحولها من حفنة متناثرة إلى عِقد ينتظمه سمط، فلا تنتشر ولا تتفرق.

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٨.

والسمط ههنا ذاكرة الخطيب اليقظة، وبديهته المستوفزة، وقدرته على أن يغالب الغفلة والتشتت، وما قد يعرض له في أثناء الإلقاء من صخب وشغب. قال الجاحظ[١]:

«أنشد أبو عبيدة في الخطيب، يطول كلامه، ويكون ذكوراً لأول خطبته، وللذي بنى عليه أمره، وإن شغب شاغب، فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حدث، يحتاج فيه إلى تدبير آخر، وصل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحدُ كلاميه أجود من الآخر. فأنشد:

**وإنْ أحدثوا شغباً، يُقطِّع نَظْمَها فإنَّك وصَّال لما قَطَع الشَّغْبُ**
**ولو كنتَ نسَّاجاً سَدَدْتَ خَصَاصَها بقولٍ كطعم الشهدِ، مازجَه العَذْبُ**

والتزام هذا الرسم يُفضي بنا كرة أخرى إلى الرسم الرابع، وهو مجانبة التكرار في الخطبة الواحدة، ولو صيغت معانيها بألفاظ مترادفة، لأن ترادف الألفاظ المختلفة لا ينفي السأم من إعادة الفكرة الواحدة. روى الجاحظ عن سفيان بن عيينة أن الزهري قال[٢]: «إعادة الحديث أشدُّ من نقل الصخر».

ومع ثقل الصخر فقد دافع بعضُ النقاد عن الترداد، واحتجوا له بحجتين:

أُولاهما أن القرآن الكريم ذكر قصص الأنبياء والأمم القديمة في مواضع كثيرة لينبَّه الغافل، ويرسخ الإيمان، ويجتث جذور الوثنية والكفر من قلوب الناس. قال الجاحظ[٣]: «جملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدّ يُنْتَهى إليه، ولا يُؤْتَى على وصفه. وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوامّ والخواص. وقد رأينا الله عزّ وجلّ ردد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة، لأنه خاطب الأمم من العرب وأصناف العجم. وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب».

والحجة الثانية أن الترداد ورد في خطب عصماء، أقرَّ النقاد بجودتها، ولم

(١) البيان والتبيين ١/ ٢١٥، الشَّغْب: الخصام والخلاف، الخصاص: الفُرَج والثقوب الصغيرة
(٢) المصدر السابق ١/ ١٠٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٠٥.

يحمل ترادها على العجز والعي، بل حمل على تثبيت الأفكار، وإثارة العواطف، والتخويف من العواقب. قال الجاحظ[١]:

«وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عِيّاً، إلا ما كان من النخار بن أوس العذريّ. فإنه كان إذا تكلّم في الحمالات، وفي الصفح والاحتمال، وصلاح ذات البين، وتخويف الفريقين من التفاني والبوار. كان ربّما ردّد الكلام على طريق التهويل والتخويف، وربّما حمي فنخر». وسواءٌ أأسغت الترداد أم مججته، فإن مجانبته خير من مراودته، والإنجاز بالإيجاز أحبّ إلى السامع من الملالة بالإطالة. قال الأصمعي: «البليغ من طبق المَفْصِل، وأغناك عن المفسّر».

**والرسم الأخير** من رسوم الخطبة المُثلى أن يكون آخرها تلخيصاً عميقاً دقيقاً، يكثف فيه الخطيب خلاصة ما يبسط من أفكار، وزبدة ما يمخضُ من آراء، ونتيجة ما يسوق من حجج، فتأتي نهاية الخطبة موصولة بحشوها وبدايتها، توجز ما طُرِح في العرض من أمور، وتحقّق ما بشرت به المقدمة من أغراض، فيخرج السامع من المحفل، وقد اقتنع بما استمع.

وعلة العناية بالنهاية أن خاتمة الخطبة هي العبارة الأخيرة التي يستقرُّ صداها في آذان السامعين، ومغزاها في عقولهم. ولهذا يحسن بالخطيب أن يضيف إلى عمق الخاتمة ودقتها جمال الأسلوب، وبراعة التصوير، وتدفق العاطفة، فيجعلها كالحكمة المأثورة، والمثل السائر، تتناقلها الأفواه بعد أن تتقبلها القلوب.

وقدماء النقاد قرنوا خاتمة الخُطبة بقافية البيت، وذهبوا إلى أن إتقان الخاتمة دليل على جودة السبك، وبلاغة المتكلم، كما جعلوا وقوع القافية في موقعها دليلاً على فحولة الشاعر، لأن الخاتمتين آخرُ ما تحمله الخواطر من المنثور والمنظوم.

قال شبيب بن شيبة التميمي[٢] [ت: نحو ١٧٠] - وكان يقال له الخطيب لفصاحته ومنادمته خلفاءَ بني أمية -: «الناسُ موكّلون بتفضيل جودة الابتداء،

(١) البيان والتبيين ١/ ١٠٥.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٢.

وبمدح صاحبه. وأنا موكلٌ بتفضيل جودة القطع (أي الانتهاء) وبمدح صاحبه. وحظُّ جودة القافية وإن كانت كلمةً واحدة أرفعُ من حظ سائر البيت».

## د- الخطيب الأمثل في آراء النقاد القدماء

عني النقاد القدماء بنقد الخطباء، وقيَّدوا من ندب نفسه للخطابة بقيود لم يقيدوا الشاعر بشيء منها. كأنهم لم يشترطوا في الشاعر الإنشاد، واشترطوا في الخطيب أن يرقى المنابر، ويحاضر في الناس.

والشروط التي قيدوا بها الخطيب مجموعة من السمات الخَلْقية والنفسية والعقلية، لا يُؤْتَاها إلّا أقلُّ الناس. والتماسُها في الخطيب لا في الشاعر يدلُّ على أن المكانة التي أخذ الخطيب يتبوؤها بدأت تعلو مع انتقال العرب من الجاهلية إلى الإسلام، لأن هذا الانتقال غلَّب فيهم العقل على العاطفة. ولذلك راح الخطيب يزاحم الشاعر في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والدينية، فيلحقه أو يسبقه، لكنه يظلُّ معه في قرن.

من القيود الخَلْقية التي قيد بها النقادُ الخطيب جهارةُ الصوت، وامتدادُ النَّفَس، وسعة الشدقين، وإخراج الحروف من مخارجها، وتوفيتها حقَّها من القلقلة والتفخيم، والجهر والتنغيم. وربما أضافوا إليها البسطة في الجسم، والضخامة في الرأس ليكون الخطيب ملءَ البصر والسمع جميعاً، لا ملء السمع وحده. قال الجاحظ[1]:

«كانوا يمدحون الجهيرَ الصوت، ويذمُّون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذمُّوا صِغَرَ الفم. وحدَّثني محمد بن يسير الشاعر قال: قيل لأعرابي: ما الجمالُ؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورحبُ الشِّدْق، وبعد الصوت.. وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

**تشادق حتى مال بالقول شِدْقُه وكلُّ خطيبٍ - لا أبا لك - أشدقُ**

والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف».

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٢٠ وما بعد.

والقيد الثاني أن يرفد الخطيب طلاقة العبارة وطلاوتها برشاقة الإشارة ودلالتها. ورأوا أن الإشارة في بعض الأحيان أدلُّ من اللسان على ما في الجنان، فهي تترجم العواطف بأسلوب خفي، وخاصة فيما يحرص الخطيب على أن يعبّر عنه بالرمز، أو يتعمد فيه التكنية، ليفهم النبيه، فلا يؤخذ بما أشار كما يحاسب على ما قال. وحدَّد النقاد الجوارح التي تُستملح منها الإشارة، وهي اليد والرأس والحاجب والطرف.

قال الجاحظ[١]: «وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدلّ والشكل والتفتل والتثني». وقال أيضاً[٢]: «الإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط! وبعدُ، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها؟ وفي الإشارة بالطرف والحاجب، وغير ذلك من الجوارح مرفقٌ كبير، ومعونةٌ حاضرة، في أمور يسترها بعضُ الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس».

وإذا كان أكثر النقاد قد أطروا التشادق والإشارة فإن بينهم من أخذهما على أهل الحاضرة، وقصرهما على الأعراب. قال الجاحظ[٣]: «والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس عيّ، ومسّ اللحية هلك».

والشرط الثالث في الخطيب الأمثل - وهو موضع خلاف - حسن الهيئة، وأناقة الملبس، وجمال السمت، ورقة الشمائل لاعتقاد النقاد أن المظهر يعبر عن الجوهر، وأن الناس يؤخذون بالشكل. قال الجاحظ[٤]: «وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، فإن جامعَ ذلك السنُّ والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال».

---

(١) المصدر السابق ١/ ٧٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٨.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ٨٩.

وخالف عن هذا الشرط سهلُ بن هارون، إذ ذهب إلى أن الخطيب يُقاس ببلاغته لا بأناقته، وبما يقول لا بما يلبس. ورأى أن الخطيب القميء القامة الرثَّ الثياب إذا تكلم فأحسن أصبحت قماءته اعتدالاً وكمالاً، ورثاثته جمالاً وجلالاً، لأنه يفاجئ القوم بما لا يتوقعون، فيدهشون، ويغدو إعجابهم المقرون بالدهشة أضعاف إعجابهم بالخطيب المهيب. قال الجاحظ[١]:

«وخالف سهل بن هارون في ذلك. قال: لو أن رجلين خطبا أو تحدَّثا.. وكان أحدهما جميلاً جليلاً بهيّاً ولبّاساً نبيلاً وذا حسب شريف. وكان الآخر قليلاً قميئاً، وباذّ الهيئة ذميماً وخامل الذكر مجهولاً، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب لتصدّع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذِّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به».

ثم علل هذا الرأي فقال[٢]: «إن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد. فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم، لأن الشيء من غير معدنه أغرب. وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب».

ورابع الشروط ثقةُ الخطيب بنفسه، وتمكُّنه من فنه، واعتداده ببيانه، وهجومه على القول بلا تردد. والكميتُ بن زيد، على ما أُوتي من فحولة الشعر، وسجية مطبوعة على الفصاحة كان يتهيب إذا خطب، ولا يتهيَّب إذا أنشد. قال الجاحظ[٣]: «قال الكميت بن زيد - وكان خطيباً -: إن للخطبة صعداء، وهي على ذي اللب أرمى».

وأقرَّ كبارُ الخطباء، بأن هذا الشرط أشقُّ الشروط على الخطيب. قال الجاحظ[٤]: «قال عبيد الله بن زياد - وكان خطيباً على لكنة كانت فيه -: نِعْمَ

---

(١) المصدر السابق ١/ ٨٩.

(٢) المصدر السابق ١/ ٨٩.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٣٤، صعداء: مشقة، أرمى: أربى أي زاد.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٣٤، البُرُد: ج بريد، التشزن: التأهب والتهيؤ، وإنما قال هذا لأن الوالي لا يدري بما يأتيه البريد من خير أو شر فهو يجزع لرؤيته ويخاف.

الشيءُ الإمارةُ، لولا قعقعة البُرُدِ، والتشزُّن في الخطب».

ولهذا السبب أخذ النقاد على الأغرار الجهلاء أن يركبوا مراكب البلغاء الأبيناء، وأن يتكلفوا من الكلام ما لا يحسنون، لئلا يصيبهم العيّ، ويبهرهم الوقوف أمام الصفوف، ويفحمهم العجز عن تشقيق القول.

قال الجاحظ[١]: «وإنما يجترئُ على الخطبة الغرُّ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء، أو المطبوعُ الواثق بغزارته واقتداره. فالثقةُ تنفي عن قلبه كلَّ خاطر يورثُ اللجلجة والنحنحة والانقطاع والبُهْر والعرق».

وقال أيضاً[٢]: «وأعيبُ عندهم من دقة الصوت، وضيق مخرجه، وضعف قوته، أن يعتري الخطيبَ البُهْرُ والارتعاش والرعدة والعرق. قال أبو الحسن: قال سفيان بن عيينة: تكلَّم صعصعة عند معاوية، فعرق، فقال معاوية: بهرك القول! فقال صعصعة: إن الجياد نضَّاحةٌ بالماء».

ورابع الشروط مرتبط بخامس، وهو أن يكون الخطيب فصيحاً بالطبع، بليغاً بالفطرة، مبيناً بالسجية، مفوَّهاً بالموهبة لا بالاكتساب، ولا يتهيأ له شيءٌ من ذلك ما لم يكن عربيّاً أعرابيّاً، نَبَت في البادية، لم تخالطه لوثةُ العجمة، ولم تفسده معايشةُ الأعاجم في الحواضر. قال الجاحظ[٣]:

«لم أجد في خطب السلف الطيّب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مَسْخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديئاً، ولا قولاً مستكرهاً. وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولَّدين، وفي خطب البلديّين المتكلّفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين».

## هـ- تقسيم الخطب عند النقاد القدماء

لا مراء في أن النقاد القدماء عُنوا بالشعر فوق عنايتهم بالنثر، وخصوا القريض قصيده ورجزه بالقدر الأكبر من دراستهم. فلما ازدهرت الخطابة في العصرين الإسلامي والأموي فرضت نفسها على النقاد، فتوفّروا على درسها

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٤.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٣٣.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨.

كما توفَّروا على درس الشعر، وقسّموا الخطب إلى أنواع، وسمَّوْا هذه الأنواع بأسماء، وعرّفوها تعريفات، قد لا ترضي القارئ العصري، لأنها ليست جامعة مانعة، لكنها في الوقت نفسه تشير إلى رهافة في الإحساس بالفروق، ورغبة في التنسيق، ومحاولة لتقسيم الخطب إلى أنواع متمايزة.

ويُعدُّ الجاحظ من أقدم الأدباء الذين قسموا الخطب تقسيماً مقبولاً، يعوزه الوضوح، ويعروه التداخل. غير أنك تستطيع بإمعان النظر، والمقارنة والاستنباط أن تستخرج من كلامه أقسام الخطب التي لاحظها، ولم يسردها في كتابه «البيان والتبيين» تحت عنوانات تميز بعضها من بعض.

ذكرنا قبلُ أن الجاحظ دعا إلى التفريق بين أنواع الخطب المتقاربة، وفي دعوته تقسيم وتمييز بين أنواع تتلاقى في عناصر كثيرة، وذلك حينما قال[١]: «فَرِّق بين صدر خطبة النكاح، وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدرٌ يدلّ على عجزه»، وحينما قال[٢]: «كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن».

وتستطيع أن تستنبط مخايل التقسيم من كلام الجاحظ حينما تحدَّث عن الأساليب المفضلة في كل ضرب من ضروب الخطب، والعادات التي تعودها خطباء العرب، وهم يخطبون، وعن تقاليدهم المتبعة في كل نوع؛ إذ لاحظ أنهم كانوا يؤثرون[٣] «استعمال المنثور في خطب الحَمَالة، وفي مقامات الصلح وسلِّ السخيمة، والقول عند المعاقدة والمعاهدة». وذكر أنهم[٤] «عابوا الإشارةَ بالعصي، والاتكاءَ على أطراف القسيّ، وخدَّ وجه الأرض بها، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت في كلامها، وافتنَّت يوم الحفل في مذاهبها، ولزومهم العمائم في أيام الجموع، وأخذ المخاصر في كل حال، وجلوسها في خطب النكاح، وقيامها في خطب الصلح، وكل ما دخل في باب الحمالة، وأكَّد شأن

(١) المصدر السابق ١/ ١١٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ١١٨.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٦.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٥٤.

المحالفة، وحقق حرمة المجاورة، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار».

وما ورد مُفصَّلاً في البيان والتبيين ذكر مُجْملاً في العقد الفريد إذ جاء فيه[١]:

«قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأجوبة... ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخُطَب التي يتخير لها الكلام، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم، ونطقت بها الأئمة على منابرهم، وشهرت بها في مواسمهم، وقامت بها على رؤوس خلفائهم، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم، ووصلتها بصلواتهم، وخوطب بها العوام».

إذا أعدتَ النظر فيما ذكرنا لك من كلام الجاحظ وابن عبد ربّه، وقعتَ على أنواع من الخطب عديدة، وهي: خطبة النكاح، وخطبة العيد، وخطبةُ التواهب، وخطبة المحافل، وخطبة الجمعة، وخطبة الحمالة (ولعلها مرادفة لخطبة التواهب)، وخطبة المعاهدة، وخطبة المواسم، وخطبة المجامع، وربما كانت خطبتا المواسم والمجامع خطبة المحافل، أو شبيهتين بها. وخطبة الصلح وهي كما يخيل إلينا متممة لخطبة الحمالة أو شبيهة بها.

وأساس التقسيم القديم المناسبات لا الأفكار، واختلافُ المناسبات لا يعني بالضرورة اختلاف الأفكار. وهذا التقسيم قد يحمل الناقد العصريَّ على اتهام الناقد القديم بتغليب الإطار على المضمون، وتسمية الخطب المتقاربة بأسماء مختلفة، وهي عند التحقيق متَّفقة في الجوهر والغرض، مفترقة في المناسبة والدافع.

إن خطبتي الجمعة والعيد خطبة واحدة، يجمع بينهما الوعظ والإرشاد، وإن خطب المواسم والمحافل والمجامع والمشاهد خطبة واحدة لانطوائها على المفاخرة والمنافرة. وثلاث الخطب التي سمَّاها الأقدمون خطبةَ الصلح، وخطبةَ الحمالة، وخطبة المعاهدة تلتقي في مُلْتقى واحد، وهو سلُّ السخائم، وإزالةُ الشحناء، وإقرارُ السلم والوفاق.

---

(١) ٤/٥٤.

## و- تقسيم الخطب عند العصريين من النقاد

يبدو أن الدارسين العصريين حينما وقفوا على هذا التقسيم القديم اقتحمته عيونهم، ولم يجدوا فيه ما يبلِّغُهم مقاصدهم، وما يكشفُ لهم عن الفروق الجوهرية بين أنواع الخطب. ولهذا سلكوا في التقسيم - ومسلكُهم إلى الصواب أقربُ - مسلكاً آخر، أساسُه الأغراض والموضوعات، وركناه الدينُ والسياسة.

وحجَّتهم أنّ الدين صَنَعَ الفكر العربيَّ في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ورسَّخ هذه الصنعة في العصر الأموي، وصبغ بالصبغة الإسلامية منظوم الأدب ومنثوره، وأن السياسة - وهي أيضاً إسلامية الصبغة - كانت العامل الأكبر الذي أنجب الأحزاب، وأشلى الزعماء بعضهم على بعض، وألهم الخطباء، وأنطق الحناجر.

من العصريين الذين قسموا الخطابة القديمة عامة والأموية خاصة على أساس الدين الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (أسس النقد الأدبي عند العرب)[١]. وعلَّل إيثاره هذا الأساس فيما قسَّم على سواه، فقال:

«كانت الخطابة العربية منذ ظهور الإسلام مؤسسة على الدين، تقتبس منه أحكامها، وتبني عليه أوامرها ونواهيها». وقال أيضاً[٢]: «إن السياسة التي كان القائمون بالأمر يشرحونها لرعيتهم، والأمور التي كانوا ينتقدون بها شعبهم كانت تصبغ غالباً بالصبغة الدينية ليكون ذلك قوة لها، وأدعى لقبولها والسير على منهاجها. ومن أجل ذلك صُبغت الخطابة العربية بصبغة دينية لم تفارقها».

ثم قسم الخطب إلى ثلاثة أنواع، سمّاها ألواناً، وهي: اللون السياسي، واللون الاجتماعي، وخطب المناسبات.

أولها - وهو اللون السياسي[٣] - «يشمل الخطب التي يلقيها الخلفاء في أول عهدهم بالخلافة، والولاة عندما يعهد إليهم بإدارة ولاية من الولايات، كما يشمل الخطب التي قيلت في عهد النزاع على الخلافة في عهد علي ومعاوية، وعهد الحسين ويزيد بن معاوية».

---

(١) ص/ ٦٢٢.
(٢) ص/ ٦٢١.
(٣) ص/ ٦٢٢.

وثانيها - وهو اللون الاجتماعي[١] - «يتناول شؤون الفرد والمجتمع».

«واللون الثالث[٢] - وهو ما يمكن أن نسميه بخطب المناسبات - هو الخطب التي تلقى لمناسبة هدف معين، كهذه الخطب التي تدعو الناس إلى الجهاد، وكتلك التي تتحدث عن الفتوح والنصر على العدو، وتصف ما دار في المعارك».

ويخيل إلينا أن د. بدوي أدرك أن تقسيمه غيرُ دقيق، فألحق بثلاثة الألوان السابقة قسمين آخرين، فقال[٣]: «ويضاف إلى الألوان الثلاثة الماضية خطبة النكاح، وهي لون من ألوان الخطب الاجتماعية، كما يضاف إليها خطب المدح التي كانت تقال في سدة دار الخلافة».

لقد صحَّح د. بدوي التقسيم القديم بتقسيم يحتاج إلى تقويم. إن الخطب التي سماها خطب مناسبات هي عند التحقيق خطب حماسية تضرب إلى السياسة بسبب. وخطبة النكاح اجتماعية خالصة، وخطبة المدح التي تلقى في مجالس الخلفاء سياسية، أو تطغى عليها السياسة. فتقسيمُه إذن راجحٌ ومرجوح، هو راجح لأنه يفضلُ القديمَ، ومرجوحٌ لأنه يفتقرُ إلى الدقة.

ونحن نرى أن أقرب التقسيمات إلى الدقة أن توزَّع خطبُ العصر الأموي على أربعة الأنواع التالية: الخطبة الدينية، والخطبة الاجتماعية، والخطبة الحماسية، والخطبة السياسية.

### ١- الخطبة الدينية

أربعة الأقسام التي سلكنا فيها خطب العصر الأموي يُعوزها التمايز الدقيق، لأن تقسيمها على النحو الذي سبق ذكره تقريبي، يرمي إلى تيسير الدرس، لا منطقي يستند إلى تحديد الفروق، ووسم كل قسم بسمات لا يشركه فيها سواه. إن الطابع الإسلامي الذي يصبغ الخطبة الدينية بصبغته لا ينحسر عن

(١) ص/٦٢٣.
(٢) ص/٦٢٤.
(٣) ص/٦٢٦.

الخطب الأخرى، بل يتجلى فيهن جميعاً. لكنه في الدينية أجلى وأقوى، وأشمل وأكمل. فأنت تلقى الطابع الديني في الخطب الاجتماعية كما تلقاه في الخطب السياسية، ويطالعُك في الموضوعات الكلية، كما يطالعك في المعاني الجزئية من كل موضوع.

وعلّة ذلك أن الإسلام ليس عقيدة وعبادة وحسب، بل فيه من الشرائع مثلُ ما فيه من الشعائر، ويتضمَّن تنظيم شؤون الحياة الواقعية في الدنيا كما يتضمَّن تصوير الجنة والنار والبعث والحساب والثواب والعقاب في الآخرة، ويُعنى بعالم الشهادة عنايته بعالم الغيب. وهذا يعني أن مفاهيم الدين وأهدافه وآدابه وقيمه تصبغ بصبغتها الخطبَ كلها ما عالج منها أمور الاجتماع والاقتصاد، وما ناقش منها السياسة، أو أثارَ الحماسة.

وعلى الرغم من أن القسم الأعظم من الخطب الدينية وعظٌ خالصٌ، فإن طائفة من هذه الخطب قد تتلوَّن بألوان متعدّدة متفاوتة، إذْ تصبغ بصبغة الخطيب، فإذا كان خليفةً شابَ موعظتَه بشَوْبٍ من السياسة، وإذا كان ناصحاً للخليفة بغَّض إليه الدنيا وزينتها، وزهَّده في المال، وحذَّره جلساء السوء، ورغَّبه في البطانة الصالحة التي تصرفه عن الدنيا إلى الآخرة.

أمَّا الخارجون على الخُلفاء والأمراء، فإن خُطبهم تدعو إلى التزام الكتاب والسنة، كأنَّهم بهذه الدعوة يتَّهمون الحكّام بالإعراض عنهما. وأمّا رؤوس الفرق الدينية فإن معتقداتهم تلابسُ مواعظهم، فتتبدَّى في الأفكار مرة، وفي طرائق التعبير أخرى، وربّما بلغ بهم التعصُّبُ لما يعتقدون أن يفهموا النصّ على ضوء ما اعتقدوا، وأن يخالفوا ما أُثر عن أهل العلم. والنموذجات التالية توضّح ما ذهبنا إليه:

كان عمر بن عبد العزيز أزهدَ الخلفاء الأمويين في الدنيا، وأشدَّهم احتفالاً بالآخرة، ولكنه - على الرغم من زهادته وعبادته - لم يستطع في خطبة من خطب أيام الجمع أن يجانب السياسة، لأن تبعتها مفروضة عليه من دون الناس.

بدأ الخطبة بالحديث عن الأجيال الماضية التي أورثت دنياها من أعقبها، وزهَّد الناس في المال وحبَّب إليهم العمل الصالح، ثم انتقل إلى الكلام على

الموت والقبر والحساب والعذاب، وأنهى الخطبة بالضراعة إلى الله أن يلهمه العدل، وإلى الناس أن يطالبوه بالحق، فقال[١]:

«أيُّها الناس، إنكم في أسلاف الماضين، وسيرثكم الباقون، حتى تصيروا كلَّ يوم تجهزون غادياً إلى الله ورائحاً، قد حضر أجلُه، وطُوِي عملُه، وعاين الحسابَ، وخلع الأسلاب، وسكن التراب، ثم تدعونه غير موسَّد ولا ممهَّد».

ثم بكى وقال: «يا أيها الناس، من وصل إلينا منكم بحاجته لم نأله خيراً. ومن عجز فوالله لوددتُ أنه وآل عمر في العجز سواء».

إن إحساس عمر بن عبد العزيز بالتبعات الثقال التي ألقتها الخلافة على كاهله لم يكن يفارقه قط. ولهذا ملأ الزهدُ في الدنيا والخوفُ من الحساب والعذاب خطبَه الدينية كلّها. تقرؤها فيخيل إليك أنها لأبي ذر الغفاري، لما فيها من إلحاح على العدل، ومحاسبة للنفس، ومراقبة لبني أمية عامة، ولأهل بيته خاصة، لئلا يفوزوا بشيء من نعم الدنيا ونعيمها، لم يفز بمثله عامة الناس.

خطب في خُناصرة - وخُناصرة بلدة في بادية حلب - فكرر ما ورد في الخطبة السابقة، حتى لكأنهما خطبة واحدة. ثم قال[٢]: «وما أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولُحمتي الذين يلونني، حتى يستوي عيشنا وعيشكم. وايمُ الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة لكان اللسان مني ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه، لكنه مضى من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة دلّ فيهما على طاعته، ونهى فيهما عن معصيته».

ثم بكى رحمه الله، فتلقَّى دموعه بطرف ردائه، ثم نزل، فلم يُرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله إلى رحمته.

وإذا كان الإيمان الصادقُ قد أنطق عمر بن عبد العزيز بخطب، تتضرَّم فيها مشاعر الخوف والورع والشوق إلى الآخرة، فإن والي العراق خالد بن عبد الله القسري [ت: ١٢٨هـ] - مع أنه كان يُرمى بالزندقة - شارك في الخطابة الدينية، إذ عالج في خطبة له مسألة الخلق، فتساءل عن صفات الخالق، وتفكَّر في

(١) الوثائق السياسية/ ٤١٨، لم نأله خيراً: لم نقصر في إيصال الخير إليه.

(٢) الوثائق السياسية/ ٤٢١، لحمتي: قرابتي أو مخالطي في الولاء، الغضارة: النعمة وسعة العيش.

معجزاته التي تجلت في تكوينه الكون، وإبداعه المخلوقات على غير مثال، وأفضى به التساؤل إلى الحيرة، واصطبغ كلامه بصبغة من علم الكلام الذي بدأت ألفاظُه تفشو في خطب العصر الأموي. قال خالد القسري[١]، وهو يخاطب الله جلَّ جلاله:

«كنت كذلك ما شئت أن تكون، لا يعلم كيف أنت إلا أنت، ثم ارتأيتَ أن تخلق الخلق. فماذا جئت به من عجائب صُنْعك، والكبير والصغير من خلقك، والظاهر والباطن من ذرك، من صنوف أفواجه وأزواجه؟ كيف أدمجت قوائم الذرة والبعوضة إلى ما هو أعظمُ من الأشباح التي امتزجت بالأرواح؟».

من الملاحظ أن الخطبة الدينية في العصر الأموي تلتزم وحدةَ الموضوع. وربما كان هذا الالتزام ناجماً عن قصر الخطب، فبضعةُ الأسطر السابقة هي كلُّ ما نقل إلينا من كلام القسري، فإمّا أن تكون الخطبة طويلة متعدِّدة الأغراض، غير أن الرواة تخيَّروا، ولم يستقصوا، فجاء المتخير مترابط الأفكار. وإما أن يكون الخطيب قد آثر الإيجاز على الإطناب، فأجمل، وأدار كلامه حول محور واحد.

وممَّا يرجِّح الوحدة على التعدُّد، والترابط على التشعُّث أنَّنا نجد بعضَ الخطب الطويلة تتناول غرضاً واحداً، أو أغراضاً متقاربة، يُفْضي بعضُها إلى بعض، فلا يحسُّ السامع شيئاً من التشعث الذي كان يطغى على الخطب الجاهلية.

خطب كلثوم بن عياض [ت: ١٢٣هـ] خطبة الجمعة - وكان من الأمراء والخطباء والأشراف الشجعان - فجعل مقدمته حمدَ الله والصلاة على نبيّه والدعوةَ إلى الطاعة، ومن الطاعة انتقل إلى الحثِّ على التقوى، وترغيب الناس في ذكر الله ليفوزوا بمرضاته وأجره، فقال[٢]:

«... أوصيكم بتقوى الله، وإيثار طاعته، فإنه من آثر الله آثره الله، ومن عمل بأمر الله أرشده الله، ومن ترك ذلك لم يضرر إلا نفسه، ولم ينقص إلا حظّه. ووجد الله غنياً حميداً اتقوا الله. وصيةُ الله في الأولين والآخرين من عباده،

(١) الوثائق السياسية/ ٤٦٥، ذرك: خلقك.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٢٠٧.

وأحقُّ الوصايا أن يحافَظ عليها ويُنْتَفَع بها وصيةُ الله. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣١]. من أراد أن يدرك آخر ما رغَّب الله فيه، وينجوَ من أسوأ ما خوَّف الله منه فليتّقِ الله في السرّ والعلانية، فإن الله جعل العاقبة للمتَّقين، وليطعْ، فإن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٢٤/ ٥٤]، وليذكر الله كثيراً، فإن الله جعل للذاكرين مغفرة وأجراً عظيماً..».

على هذا النحو يمضي كلثومُ بن عياض في خُطبته، فيحثُّ المسلمين أعلامَهم وأغفالَهم، وعلماءَهم وجهّالَهم على التقوى والطاعة، والدعوة إلى دين الله، وتحكيم العقل في شؤون الحياة، ويظاهر ما يحثُّهم عليه بأربع آيات. ثم يختم الخطبة بما بدأها به، أي بحمد الله والصلاة على النبي، فتحسّ أنك أمام خطبة دينية عصرية، قد تكاملت صورتُها. وبعبارة أخرى تحسُّ أن خطبة ابن عياض تمثل الصورة الأولى الجيّدة المستلهمة من خطبة حجة الوداع، والمحتذية حذوها، وأن معالمها أخذت تكتمل مع مرور الأيام، حتى رسخت رسومُها في الحناجر، وعلى المنابر.

ولعلَّ أهمّ ما يثير اهتمامك فيها وفي مثيلاتها من الخطب المفصّلة، أن الخطيب لا يتأثر بالكتاب والسنة تأثراً عقليّاً وعاطفيّاً فحسب؛ بل يقتبسُ منهما أكثر خطبته إمّا بنصوص الآيات والأحاديث معنىً ومبنىً، وإمّا بالمعاني مَكْسُوَّةً ألفاظاً ترادفُ ألفاظها المنزلة أو المأثورة، ولكنها تظلُّ محافظة على جوهرها فكراً وعاطفة، ومنزعاً وغاية.

أمَّا نصوص الآيات فقد تجلَّت فيما وضعناه بين أقواس، وأمَّا المُقتبس بالمعنى وبعضِ اللفظ فنحو قوله: وجد الله غنيّاً حميداً، وقوله: فإن الله جعل العاقبة للمتقين. وأمَّا نصوص الحديث الشريف فقد تجلَّت في مقدمة الخطبة المقتبسة ممّا بدأ به النبيُّ ﷺ خطبته في حجة الوداع. وهو قول ابن عياض: «الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا». قبسه من الحديث النبوي بمعناه ومبناه.

ذكرنا قبلُ أن الخطبة الدينية لم تكن وعظاً خالصاً، ونذكر الآن أن ما خُطِبَ منها بين أيدي الخلفاء والأمراء انطوى على كثير من النصح، بعضُه دينيٌّ،

وبعضه دنيوي، ونصحُه الدنيويّ إصلاحيُّ الغرض، سياسيُّ المرمى، يهدف إلى تحذير الحاكم من الزيغ، وإلى ترغيبه في الحكم بالعدل، وتخويفه من بطانة السوء التي تُصلح دنياه بإفساد آخرته.

ومن أبلغ الخطب التي نُصِح بها للخلفاء خطبةٌ خطبها شدّادُ بن أوس الخزرجيّ [ت: ٥٨هـ] بين يدي معاوية، وشدّادٌ هذا صحابيٌّ جليل، أوتي من الفصاحة والنزاهة والحكمة والجرأة ما حَمَل عمر بن الخطاب على توليته إمارة حمص. فلمّا آل الأمر إلى معاوية وفد إليه مرشداً لا مسترفداً، فأمره معاوية أن ينتقص عليّاً، فلم يأبه لما أمره به، وراح يخطب في مجلس الخليفة خطبة تُرضي الله، وتغضب الحاكم، وتصرفُ الناس عن الدنيا وزينتها إلى الآخرة وجنتها.

سلك شدّاد إلى غرضه مسلكاً أريباً، فيه من الحكمة مثلُ ما فيه من النقد، إذْ أغفلَ الألقاب، وأشاد بالقيم، فلم يُطْرِ عليّاً، ولم يُزْرِ بمعاوية، وإنما أطرى الصُّلحاء والفقهاء، وأزرى بالسفهاء والجهلاء، وسفَّه قُرناء السوء، وعظَّم أهل التقوى، وغلَّف آراءه العميقة بغلاف ديني، لا يجرؤُ معاوية على أن يعارضَه أو يناقضَه، فأُسقط في يده، وأُخذ من حيث لا يحتسب. وممَّا قال شدّاد بعد أن حمد الله وحثَّ على طاعته[1]:

«أيُّها الناس، إن الآخرة وعدٌ صادق، يحكم فيه ملك قادر. وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر، يأكل منها البرُّ والفاجر. وإن السامع المطيع لله لا حجة عليه، وإن السامع العاصي لا حجة له. وإن الله إذا أراد بالعباد صلاحاً عمل عليهم صلحاؤهم، وقضى بينهم فقهاؤهم، وملك المال سُمَحاؤهم. وإذا أراد بهم شرّاً عمل عليهم سفهاؤهم، وقضى بينهم جهلاؤهم، وملك المال بخلاؤهم. وإن من صلاح الولاة أن يصلحَ قرناؤهم. ونصح لك يا معاوية من أَسْخَطك بالحقّ، وغَشَّك من أرضاك بالباطل».

ما اقتطفناه من خطبة شدّاد يدلُّك على أن الخطبة الدينية في العصر الأموي تطوَّرت تطوراً فكريّاً، يواكب تطوّر الأحداث، وارتقت ارتقاء فنيّاً، يعدل الرقي الذي أخذ ينقل الحياة العربية من البداوة إلى الحضارة، والأدبَ من الطبع إلى الصنعة. وقد تجلّى تطوُّرها وارتقاؤها في أمور:

---

(١) الوثائق السياسية/ ١٠٤.

- أولُها الفهمُ الواقعيّ العمليُّ للدين، وتسخير الوعظ لإصلاح أحوال الناس في الدنيا، لا الاقتصارُ على الترغيب والترهيب.
- وثانيها البراعةُ في النقد، والحذرُ في إسداء النصح، ومخاطبةُ معاوية بمثل ما عُرف به من دهاء. ولعلَّ ذلك ناجم عمَّا عُرف به شدّاد من حكمة، وما تمرَّس به من أمور الإمارة في عهد عمر بن الخطاب.
- وثالثُها الحريةُ الفكرية التي أتاحت لواحد من الرعية أن ينقد نقداً بلا تجريح، وللراعي أن يصغي إليه إصغاء بلا غضب.
- ورابعُها - وهو الأهمُّ من الناحية الأدبية - السموُّ بالأسلوب من الكلام العفويّ المرسل إلى الأدب الفني الممتع. فالخطبةُ حفلتْ بالسجع الرشيق، والطباق الذي تقتضيه الفكرة، والمقابلة غير المتكلفة التي جعلت جمل النصِّ معادلاتٍ رياضية متوازنة في اللفظ، متناقضة في المعنى، وتناقضُها أوفى على الغاية في الدقة، والتعبير عن القصد، بلا زخرفة تخنق الغرض، ولا تكلُّف يلوي أعناق المعاني.

من ينتقل من الوعّاظ إلى رؤساء الفرق الدينية، ومن الألسنة المعنية بالنصح والإرشاد إلى الألسنة الناطقة بآراء المذاهب، يجد أن في الخطبة الدينية نمطاً يعبّر عن أفكار جديدة، لم يألفها الناس في عصر النبوة والخلافة الراشدة، لكنها تظلُّ معتمدة على الكتاب والسنة، ويجد أن جديدها يتجلَّى في تفسيرها النصوصَ على نحو يخالف ما أجمع عليه العلماء، وفي ابتكارها أساليبَ فنية تدلُّ على البراعة في الصناعة.

من خطباء هذا النمط عبدُ الله بن يحيى الملقّب بطالب الحق [ت: ١٣٠هـ] كان من الخوارج الإباضية، خلع طاعة مروان بن محمد [ت: ١٣٢هـ] واستولى على اليمن ومكة، وراح يدعو لمذهبه، ويخطبُ خطباً دينية تتوارى فيها السياسة خلف الدعوة إلى الكتاب والسنة، ويفسر بعض النصوص تفسيراً متشدّداً، فيكفر مرتكب الكبيرة، ويفتي بأن الزاني والسارق وشارب الخمر والمرتاب في كفره كَفَرَة، والكافر مخلّد في النار. قال في خطبة له[1]:

(١) ديوان الخوارج/ ٢٥٩.

«إنا ندعوكم أيّها الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإجابة من دعا إليهما. الإسلامُ ديننا، ومحمد نبينا، والكعبةُ قبلتنا، والقرآن إمامنا». وليس في هذا القول ما يؤخذ عليه. وليس فيما سبقه من تذكير وتحذير خروجٌ أو مخالفة، إنما المخالفة في قوله:

«مَنْ زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر».

وما أظنُّك، وأنت تقرأ كلامه، إلا متذكّراً الحديث النبوي الشريف: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن». وما أظنُّك كذلك إلّا معترضاً على التكفير الذي أفتى به عبد الله بن يحيى معتمداً، كما يُخيَّل إلينا، على هذا الحديث. ولك أن تدحض هذه الفتوى بأمور:

- أوّلُها أن للحديث رواية أخرى، جاء في آخرها: «والتوبةُ معروضةٌ بعدُ» وعرضُ التوبة يعني أن باب الاستغفار مفتوح، ومتى فتح باب الاستغفار والتوبة أُغلق باب التكفير.
- وثانيها أن الحديث ورد في صحيح مسلم[1] تحت عنوان: «بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبِّس بالمعصية على إرادة نفي كماله» ونفيُ الكمال لا يعني إثبات الكفر، سواءٌ أتاب المذنب أم لم يتبْ.
- وثالثها أن معنى الحديث قد يحمل على التحذير لا على التكفير. جاء في حاشية صحيح مسلم: «هذا الحديث ممَّا اختلف العلماء في معناه، والقولُ الصحيح الذي قاله المحققون: إن معناه لا يفعل هذه المعاصي، وهو كامل الإيمان».

وربما كانت خطب المعتزلة أدلَّ على مذهبهم من خطب الفرق الأخرى على مذاهبها، فهي تحفلُ بما عُرفوا به من الغلوّ في تعظيم العقل، ومن الاحتكام إلى المنطق، والخوض في صفات الله، وإثارة الحوار، والكلف بتشقيق القول في علم الكلام، حتى انتهى بهم هذا الكلفُ إلى إثارة فتنةٍ، جوهرُها القول بخلق القرآن.

---

(١) ١/٧٦.

وربّما كان واصلُ بن عطاء [ت: ١٣١هـ] أبرعَ لداته، وأشهر مَنْ عُرفوا في زمانه بالجدال من أهل الاعتزال. قال الزركلي في ترجمته[١]: «هو رأسُ المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلّمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقةَ درس الحسن البصري، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق».

وقال المبرّد[٢]: «كان واصلُ بن عطاء أحدَ الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغَ قبيح اللثغة في الراء، فكان يخلص كلامَه من الراء، ولا يُفْطَنُ لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه».

وإذا عرفتَ أن الكلمات العربية المنتهية بحرف الراء - وبَلْهَ الكلماتِ التي تبدأ به وتُحْشى - تشغل ثمن المعجم العربي أدركت مدى ما تميَّز به واصلٌ من موهبة نادرة، وقدرة فائقة على التصرف بالكلام العربي، على الرغم من أنه لم يكن عربياً أصيلَ العروبة، بل كان مولىً من موالي بني ضبة، أو بني مخزوم.

ذكر عبد السلام هارون[٣] أن نفراً من كبار الخطباء اجتمعوا في مجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق بين سنة ١٢٦هـ وسنة ١٢٩هـ، فخطب خالدُ بن صفوان، ثم شبيب بن شيبة، فالفضل بن عيسى، وهم الطبقةُ الأولى من خطباء عصرهم. وكانوا قد أعدّوا خطبهم، وحبَّروها. ثم روى أن واصل بن عطاء وقف يخطب مرتجلاً، ويتجنَّب في خطبته من أولها إلى آخرها حرف الراء.

ولمَّا كانت الخطبةُ من نوادر النصوص في الأدب العربي، فقد رأينا أن نقفَكَ عليها كاملة قبل أن ننظر فيها، ونعلِّق عليها. قال واصل:

«الحمدُ لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دُنوِّه، ودنا في علوِّه، فلا يَحْويه زمان، ولا يُحيط به مكان، ولا يؤوُده حفظُ ما خلق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأه وعَدَلَه اصطناعاً، فأحسن كل شيء خلقه، وتمَّم مشيئته، وأوضح حكمته، فدلّ على ألوهيته. فسبحانه، لا مُعقبَ لحكمه،

(١) الأعلام ٨/ ١٠٨.
(٢) الكامل ٣/ ١١١٢.
(٣) نوادر المخطوطات/ المجموعة الثانية/ ١١٧ وما بعد، يؤوده: يثقله ويشق عليه، لا معقب لحكمه: لا رادّ لقضائه، مألكته: رسالته، يزلفكم: يقربكم.

ولا دافعَ لقضائه، تواضع كلُّ شيء لعظمته، وذلَّ كلُّ شيء لسلطانه، ووسع كلَّ شيء فضلُه. لا يعزُب عنه مثقالُ حبة، وهو السميع العليم.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده، لا مثيلَ له؛ إلهاً تقدَّستْ أسماؤه، وعظمتْ آلاؤه، علا عن صفات كلِّ مخلوق، وتنزَّه عن شَبَه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تُحيط به العقول ولا الأفهام، يُعْصَى فيحلم، ويُدْعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلمُ ما يفعلون.

وأشهدُ شهادة حقّ، وقولَ صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية، أن محمد بن عبد الله عبدُه ونبيُّه، وخالصتُه وصفيُّه، ابتعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق، فبلّغ مأْلَكَتَه، ونصحَ لأمته، وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصدُّه عنه زعمُ زاعم، ماضياً على سنته، موفياً على قصده، حتى أتاه اليقين. فصلَّى الله على محمد وعلى آل محمد أفضلَ وأزكى وأتمَّ وأنمى وأجلَّ وأعلى صلاة، صلّاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك. إنه حميدٌ مجيد.

أُوصيكم عبادَ الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعتهِ، والمجانبةِ لمعصيته، فأحضُّكم على ما يُدْنيكم منه، ويُزْلفكم لديه، فإنَّ تقوى الله أفضلُ زاد، وأحسنُ عاقبة في معاد.

ولا تُلهينَّكم الحياةُ الدنيا بزينتها وخُدَعها، وفواتن لذّاتها، وشهوات آمالها، فإنها متاعٌ قليل، ومدةٌ إلى حين، وكلُّ شيء منها يزول. فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصَبَتْ لكم من حبائلها، وأهلكت مَنْ جَنَح إليها، واعتمد عليها، أذاقتهم حُلواً، ومزجتْ لهم سُمّاً.

أين الملوكُ الذين بنوا المدائن، وشيَّدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحُجّاب، وأَعدُّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ قبضتْهم بمخلبها، وطحنتْهم بكلكلها، وعضَّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العزّ ذُلًّا، ومن الحياة فناءً، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تعاينُ إلّا مساكنَهم، ولا تجدُ إلا معالمهم، ولا تُحِسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم نَبْساً.

فتزوّدوا، عافاكم الله، فإن أفضل الزاد التقوى، واتّقوا الله يا أولي الألباب

لعلَّكم تُفلحون، جَعَلنا الله وإياكم ممَّن ينتفعُ بمواعظهِ، ويعمل لحظِّه وسعادته، وممَّن يستمعُ القول، فيتَّبع أحسنَه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب.

إنَّ أحسن قصص المؤمنين وأبلغَ مواعظ المتَّقين كتابُ الله الزكيَّة آياتُه، الواضحةُ بيّناتُه، فإذا تُلي عليكم فاستمعوا له، وأنصتوا لعلَّكم تهتدون.

أعوذ بالله القويِّ، من الشيطان الغويّ. إن الله هو السميع العليم. باسم الله الفَتَّاح المنَّان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

نَفَعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحي المبين، وأعاذَنا وإيّاكم من العذاب الأليم، وأدخلنَا وإياكم جناتِ النعيم. أقولُ ما به أعظكُم، وأستعتبُ الله لي ولكم»[1]. انتهى كلام واصل بن عطاء.

إذا أردت أن تعلّق على خطبة واصل، أو أن تناقشها لترصد التطوُّرَ الذي أنجزته في إطار الخطبة الدينية طالعتك منها أمورٌ كثيرة بعضُها فكري، وبعضُها فني، تدلُّ على تأثرها بما ذهب إليه الخطيبُ من الاعتزال.

- أوّلُ هذه الأمور أن مجانبة الراء صنعةٌ لا طبع، وعملٌ متكلَّف صعبٌ لا موهبة. لقد زعم راوي الخبر أن خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى كانوا الطبقة الأولى من خطباء عصرهم، وأنهم كانوا قد أعدُّوا خطبهم وحبّروها، وزعم كذلك أن واصل بن عطاء وقف وارتجل خطبته متجنّباً حرف الراء.

وفي هذا القول غلوٌّ لا يعقل، وحقيقة الأمر - كما يخيل إلينا - أن واصلاً كان قد أعدَّ خطبته، وحفظها، ثم أرسلها في المجلس من حافظته الدربة بإتقان المحفوظ، فتوهَّم مَنْ سمعوه أنها مرتجلة. إذْ لا يسوغ في العقل أن يقوى المرتجل - مهما يؤت من البداهة - على تجنُّب الراء في خطبة مطوَّلة، والراءُ من أشيع الأصوات في لغة العرب، وأكثرها وروداً في قوافي الشعر وفواصل النثر.

---

(١) حبائلها: شراكها ومصايدها، جنح: مال، عاضتهم: أبدلتهم، نبساً: كلاماً، المصانع: ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية والقصور والحصون، التلاد: المال القديم والموروث.

وممّا يدلُّك على صحة ما ندَّعي أن واصلاً تجنَّب النطق بالراء في آيات من كتاب الله، فلم يتلُها كما نزل بها الوحي ورُسمت في المصاحف، بل رواها بعد ما حرَّف فيها وصحّف، وإن شئت الدقة فقل تلا الآيات كلَّها بألفاظها، ما عدا الكلمات الرائية، فقد استبدل بها ألفاظاً ترادفها نحو: أو تسمع لها نبساً، بدلاً من قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ١٩/٩٨] ونحو: فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون، ونص الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. فلمّا اضطر إلى الاحتجاج بصفات الله بسورة كاملة من قصار السور اختار سورة الإخلاص، فتلاها كاملة غير مصحفة ولا محرفة، لخلوّها من صوت الراء، واختيارُها لا يتأتّى له إلا بعد تفكّر وتدبّر واستعداد وإعداد.

- وثاني الأمور أن مذهب الاعتزال الذي كان واصل بن عطاء مبتدعَهُ الأول، أو أحدَ مبتدعيه يتجلَّى في هذه الخطبة، وخاصّة في حديثه عن الذات الإلهية بألفاظ مُغرقة في التجريد، وعبارات مضمخة بالمنطق، لا يُحسنها إلا من تأثّروا بكلام الفلاسفة، واحتكموا إلى العقل في فهم الكتاب والسنة، فطار بهم العقل إلى أفق واسع الأبعاد والآماد. من ذلك قوله في بداية الخطبة: «الحمدُ لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دُنوِّه، ودنا في عُلوِّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان». وقوله في حشو الخطبة: «تقدَّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كلِّ مخلوق، وتنزّه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهامُ، ولا تحيط به العقول والأفهام».

إن مثل هذا التصوُّر، ومثل هذا التصوير لصفات الله لم يكونا مألوفين في خطب الخلفاء الراشدين والصحابة، لأنهم تلقَّوا القرآن، وفهموه وآمنوا به بقلوبهم وعقولهم جميعاً، لا بعقولهم وحدها.

- وثالث الأمور - وهو ناجمٌ عن الثاني - أن واصلَ بن عطاء أبرزَ مكانة العقل في فهم النصوص، وألحَّ على الاحتكام إليه، وحثَّ الناس على إعماله في تفسير ما يسمعون من كلام الله، وفي استنباط معجزات الخلق من الكون، وظاهَرَ كلامَه بآياتٍ وعبارات تعظِّم العقول كقوله: واتّقوا الله يا أولي الألباب، وقوله: وأولئك هم أولو الألباب.

قد تقول - وقولك لا يخلو من الصواب -: إن واصل بن عطاء اتَّهم الأفهام والعقول بالقصور عن تصوّر الذات الإلهية، وبالعجز عن الإحاطة بكنهها، وإدراك جوهرها، فكيف تزعم أنه يذهب مذهب المعتزلة، والاعتزالُ يقدّس العقل، ولا يزري به؟

إن اعتراضك هذا لا يدحض اعتزال واصل، بل يُظاهره؛ فالمعتزلة خاصة، وعلماء الكلام عامة يخالفون من يفهم بعضَ النصوص فهماً حرفياً ولاسيّما ما ارتبط منها بصفات الله، ويرفضون تجسيم اليد والعين والجوارح، ويقولون: كلُّ ما خطر في بالك فالله ليس كذلك، وكلامُهم هذا يطابق ما ذهب إليه واصل من عجز الأفهام والعقول عن تصور الذات الإلهية وتصويرها، فنزعتهم العقلية تتجلَّى في التجريد لا في التجسيد.

- ورابع الأمور ارتقاءُ واصل بأسلوب الخطابة من الكلام العفويّ المُرْسَل إلى النثر الفنيّ الممتع، وإلى تحسين الكلام بمحسنات البديع كالسجع والتوازن في قوله: «أعدّوا الجياد، وملكوا العباد، واستخدموا التلاد»، والسجع والمطابقة في قوله: «علا في دنوه، ودنا في علوه».

- والأمر الخامس التعبير بالتصوير الحسي عن المعاني المجرّدة، ولاسيما ما اتصل من هذه المعاني بمصائب الحياة الدنيا، كقوله: «كم نصبت لكم من حبائلها» وقوله: «قبضتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها» والغرض من هذا التصوير أن يضاعف الخطيب التأثير في قلوب الناس، وأن يحملهم على الاعتبار والخوف، ويزهدهم في متاع الحياة، ويشدهم إلى الآخرة.

وخلاصة القول فيما آلت إليه الخطابة الدينية في العصر الأموي أنها لم تكن على نمط واحد، بل كانت متعدِّدة الأنماط، وتعدُّد أنماطها نجم عن الاختلاف في المناصب التي تسنَّمها الخطباء، وعن تفاوتهم فيما ثقفوا من الكتاب والسنة والعلوم الناشئة، وعن انتمائهم إلى أحزاب وفرق دينية ذوات تيارات فكرية وسياسية متباينة، لكنها، على تباينها، تلتقي في ملتقى واحد، وهو صدورها عن الإسلام عقيدة وشريعة.

## ٢- الخطبة الاجتماعية

أنجزت الخطبة الاجتماعية في عصر النبوة والخلافة الراشدة تطوراً، نقلها من الدوران في إطار العصبيات القبلية الضيقة، ومفاهيم التنافس والتنافر، والتحاسد والتباغض إلى ميدان الأخوة في الدين، والتعاون على البرّ والتقوى. لكنها لم تنسخ كلّ جاهلي موروث، بل أقرَّت منه ما يوافق مكارم الأخلاق العربية، ولا يعارض العقيدة الإسلامية، وألغت ما يضرب إلى الوثنية بنسب أو سبب، وما يستقي من الجاهلية بعرق أو تقليد، إذ من المستحيل أن يأتلف التوحيد والشرك، ويتآخى الحقّ والباطل.

لم تكن الخطبة الاجتماعية في عصر النبوة والخلافة الراشدة من نمط واحد، بل كانت متعددة الأنماط والأغراض: فنمط يلقى في استقبال الوفود، ونمط يزجى للتهنئة بما يُسعد، وثالث يقدم للتعزية بما يحزن، ورابع يبارك نكاحاً يجمع بين زوجين.

وفي العصر الأموي حافظت أنماط الخطب الاجتماعية على استمرارها، غير أن بعضها فتر، وبعضها ازدهر، ويعود فتور ما فتر، وازدهار ما ازدهر إلى تغير الأحوال الاجتماعية بعد أن احتكت البداوة بالحضارة، وهدأت حركة الفتوح، وآثرت القبائل المهاجرة مع مواكب الفتوح أن تستقرَّ في البلاد المفتوحة.

وأبرز هذه الأحوال يقظة العصبيات القبلية، ونظام الحكم الوراثي، وشيوعُ روح التكافل والتهذيب والمجاملة في المجتمع الجديد. فعن يقظة العصبيات نجمت خطبُ الإصلاح بين القبائل، وعن نظام الحكم الوراثي نجمت التهنئة بخلافة ولي العهد والتعزية بموت من ولّاه، ولشيوع التهذيب والمجاملة ازدهرت خطبُ التأبين.

أمَّا خطبة النكاح فإن استمرارها لم يكن في حاجة إلى أكثر من استمرار الحياة وَفْقَ ما فطر الله عليه البشر من عمارة الكون بالزواج المشروع. وأمَّا خطبة الشكوى فهي مرتهنة بالقحط، فمتى ضنت السماء على بقعة من بقاع الأرض، أنفذ أهلُها الوفودَ إلى الخليفة يشكون، وينتجعون، فيكشف عنهم الخليفة الضرّ، ويُعينهم على نوائب الدهر. ونكتفي ههنا ببضعة أنماط من الخطب الاجتماعية: خطبة النكاح، وخطبة التهنئة والتعزية، وخطبة التأبين، وخطبة الإصلاح، وخطبة الوفود.

## أ- خطبة النكاح

في الجزء الرابع من هذه السلسلة[١]، وهو (النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة) كنّا قد فصَّلنا القول في خطبة النكاح، وسمَّيناها هناك خُطبة الزواج، ولك أن تسميها خطبة الإملاك. وربطنا ثَمَّ خطبة الزواج في عصر النبوة بمثيلتها في العصر الجاهلي. وذكرنا أشهر خطبة من هذا الضرب، وهي ما قيل حينما خطب أبو طالب خديجة بنت خويلد لابن أخيه محمد بن عبد الله ﷺ.

ولمَّا كانت خطبةُ النكاح مرتبطة بآيةٍ من آيات الله لخَّصها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١] فقد أصبحت هذه الخطبة سنةً متبعة، ورثها العصر الأموي عن العصر الإسلامي، فرسَّخ رسومها، وصقل أفكارها، وارتقى بأسلوبها، وزادها جمالاً في التعبير، وأناقة في التصوير، وتوهُّجاً في العاطفة.

قال الجاحظ[٢]: «والسنةُ في خطبة النكاح أن يُطيل الخاطب، ويقصِّر المجيب». وقال ابن عبد ربه[٣]: «قال العُتبي: يُسْتحبُّ للخاطب إطالةُ الكلام، وللمخطوب إليه تقصيرُه». ووفق هذه القاعدة ذكر ابن عبد ربه «أن محمد بن الوليد خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فتكلَّم محمد بكلام طويل، فأجابه عمر: الحمد لله ذي الكبرياء، وصلَّى الله على محمد خاتم الأنبياء. أمّا بعد، فإنّ الرغبة منك دعتك إلينا، والرغبة فيك أجابتك منا. وقد أحسن بك ظنّاً مَنْ أودعك كريمتَه، واختارك ولم يختر عليك، وقد زوَّجتُكها على كتابِ الله، إمساكاً بمعروف، أو تسريحاً بإحسان».

ومَنْ يستعرضْ خطب النكاح في العصر الأموي يجدْ أن خطبة الخطيب تتأثَّر بعوامل عديدة، أولُها ما فُطِرت عليه شخصيَّتُه من طباع، وثانيها ما لقفَ من ثقافة وما تزوَّد من علم، وثالثُها طبيعةُ الصلةِ التي تصلُ الخطيبَ بالمخطوب له أو المخطوبة.

---

(١) ص/ ٢٥٦.
(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٦.
(٣) العقد الفريد ٤/ ١٥٠.

فخطبةُ عمر بن عبد العزيز السابقة - على قصرها الشديد - نمَّت على شخصيته الجادَّة، ووقاره المهيب، وزهده في المصانعة. لقد حمَّل الخاطبَ تبعاتِ الزواج بعدما توسَّم فيه القدرة على حملها، ثم جمع في أربع جمل موجزة غاية الإيجاز ما تواضع عليه العربُ في خطبة النكاح، وما شرع الله من خِطبة أساسُها حُسْن الاصطفاء، وزواجٍ رباطُه المودَّة والرحمة، وطلاقٍ يصحبُه التلطُّف، ولا يشوبه التعسُّف. فحسنُ الاصطفاء تجلَّى في قوله: «اختارك ولم يخترْ عليك» وشرعةُ الزواج في قوله: «زوَّجتُكها على كتاب الله»، والعلاقةُ الإنسانية بين الزوجين في قوله: «إمساكاً بمعروف» وفسخ العقد بالتي هي أحسنُ في قوله: «أو تسريحاً بإحسان».

أمَّا عُتْبةُ بن أبي سفيان فإنه غلَّب القلب على العقل، والمشاعر على الشرع، والقرابة على المجاملة، والوداد على الشروط، فلم يسأل عن حالٍ أو مال، ولم يأبه لصداق، ولم يتخوَّف من طلاق. وعلَّةُ ذلك أن الخاطب ابنُ أخيه والمخطوبة ابنته، فكلاهما عنده أثير، وإلى قلبه حبيب، والجمع بينهما ضاعف هذا الحبّ.

روى ابن عبد ربه خطبة عتبة، فقال[1]: «خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته فقال عتبة: «أقربُ قريب خطب أحبَّ حبيب، لا أستطيعُ له ردّاً، ولا أجد من إسعافه بُدّاً. قد زوجتكها وأنت أعزُّ عليّ منها، وهي ألصقُ بقلبي منك، فأكرِمْها يعذبْ على لساني ذِكْرُكَ، ولا تُهِنْها، فيصغر عندي قدرُك. وقد قرَّبتك مع قربك، فلا تُبْعد قلبي من قلبك».

وما أظنُّك إلا متأثّراً بهذه العواطف النبيلة الصادقة، والأبوة الكريمة الحانية على الخاطب والمخطوبة معاً، وبهذه النظرة المترفعة عن المال، الباحثة عن الوِفاق، المعنية بسموّ الأخلاق، وحسن العشرة، وإكرام المرأة، ومجانبة الإساءة والإذلال، كأنَّ خطبة الخطيب مستمدة من كلمتي «المودّة والرحمة» اللتين ظلَّل بهما كتاب الله رباط الزواج.

أضفْ إلى ذلك أن الخطبة صيغت أجملَ صياغة، وعُرضت بأبهى صورة، إذْ صُبَّتْ أفكارها الإنسانية الرفيعة في عبارات متوازنة، رشيقة الألفاظ،

(١) المصدر السابق ٤/ ١٤٩.

مسجوعة الفواصل، حتى غدت كأنها أغنية عذبة الألحان، تُزفُّ على إيقاعها المرأة إلى الرجل.

وأمّا الحسن البصريّ - وهو فقيهٌ يعظ لا أبٌ يحدب - فقد كان عقلُه في خطب النكاح يطغى على قلبه، وكان علمُه أظهرَ من أدبه، فلم يكن جمالُ التعبير يشغلُه عن دقة التفكير، بل كان فيما يخطب يشيد بحكمة الزواج، ويثني على كفاءة الخاطب، ويحدِّد المهر، ويُتيح لأهل المخطوبة أن يُبَيِّتوا الرأيَ قبل أن يردّوا عليه بالقبول أو بالرفض. قال ابن عبد ربه[١]:

«كان الحسنُ البصريُّ يقول في خطبة النكاح بعد الحمد لله، والثناء عليه:

أمّا بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة، والأنسابَ المتفرِّقة، وجعل ذلك في سُنّةٍ من دينه، ومنهاج من أمره. وقد خطب إليكم فلان، وعليه من الله نعمةٌ، وهو يبذل من الصداق كذا، فاستخيروا الله، وردُّوا خيراً، يرحمكم الله».

من وقوفنا على نموذجات كثيرة من خطب النكاح تبيّن لنا أن التقليد الذي ذكره الجاحظ والعتبي - وهو أن يُطيل الخاطب في خطبة النكاح - لم يكن ملتزماً في خطب العصر الأموي، إمّا لأن العرب آثروا الأصل الراجح، وهو: «البلاغة الإيجاز» على الفرع المرجوح، وهو الإطالة فيما يقول الخاطب. وإمّا لأن حَمَلة الأخبار ونقلة النصوص، من الرواة المتأخرين كانوا يُرسلون مِقصَّ التشذيب فيما ينقلون إلينا من خطب الأمويين.

قال ابن قتيبة الدينوري[٢]: «كان خالد القسريّ يقول في خطبة النكاح: ذكرتم أمراً حسناً جميلاً، وعد الله فيه الغنى والسعة، فلا خلفَ لموعود الله، ولا رادَّ لقضاء الله. إذا أراد جماعَ أمرٍ فلا فُرْقةَ له، وإذا أراد فرقةَ أمر فلا جماع له. عرضتُ كذا. فإذا قال: نعم، قال: قد نكحت».

### ب- خطبتا التعزية والتهنئة

لهذين الضربين من الخطب الاجتماعية جذور جاهلية، لا يُنْكَر استمرارها، وانتقالُ آثارها إلى ما يضارع هذين اللونين من خطب العصرين

(١) المصدر السابق ٤/ ١٥٠.
(٢) عيون الأخبار ٤/ ٧٢.

الإسلامي والأموي. فالتواصلُ الإنساني يقضي بأن يتقاسم البشر عواطفَ الفرح والترح، ويشتركوا في الإحساس بالمشاعر في السَّراء والضَّراء، لكي يُضاعف المهنِّئ بالتهنئة سرورَ المحبور، ويحمل الخليُّ عن الشجيّ نصيباً من الغمّ، فلا يُرْمَى المهنّئ بالحسد، ولا يُتَّهم المعزِّي بالشماتة.

فلما بزغ الإسلام ارتقت التعزية والتهنئة، إذْ طاف بهما طائف ديني من الوعظ والاعتبار والتوجيه، وامتدَّت عليهما ظلالٌ من العبادة والتقرُّب إلى الله، حتى إن النبيّ ﷺ كان إذا رفأ الإنسان - أي تزوّج - قال[١]: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير». وبشَّر المعزِّيَ بثواب يعدل ثواب المُصاب، وبمقام كريم يوم القيامة. جاء في الحديث[٢]: «مَنْ عزّى مصاباً فله مثل أجره». وجاء فيه أيضاً[٣]: «ما مِن مؤمن يُعزِّي أخاه بمصيبته إلّا كساه الله عزَّ وجلَّ من حلل الكرامة يوم القيامة».

لقد كانت التعزية والتهنئة قبل الإسلام صورتين إنسانيتين من صور التراحم والتعاطف، وحلقتين كريمتين في سلسلة الترابط بين العشائر والأسر، ومناسبتين عارضتين، تطهر فيهما النفوس من أوضار العصبية وتفث الشحناء. فلمَّا بزغ الإسلام أقرَّهما، وأقرَّ بإقرارهما كلَّ هذه القيم الرفيعة، وأضاف إليها ما هو أرفع منها وأنفع، إذْ جعلهما بعضَ الدين، وبشَّر المعزِّيَ والمهنّئَ بأجر وفير، لا يكلِّفهما مالاً يُنْفَق، ولا مشقة تُكابَدُ.

وفي العصر الأموي ازدهر هذان الضربان من الخطب الاجتماعية. وشاعا في ميادين الحياة العامة والخاصّة، وترددت أصداؤهما في دور السوقة وقصور الأمراء، وساعد على ازدهارهما وشيوعهما استقرار الحياة، وتطور الحضارة، وتقارب الأسر، وتعايشها في أحياء الحواضر المتجاورة، وتعاطفها على الرغم من العصبية التي أثارها الأمويون.

وأشيعُ ما شاع منهما في ميدان الحياة الرسمية ضربٌ يزجيه العامة إلى الخاصة، والرعية إلى الرعاة. وهذا الضرب يقرن التعزية بالتهنئة، فيلون سواد

(١) الأذكار/ ٣٩٢.
(٢) المصدر السابق/ ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق/ ٢٠٩.

الحزن بنور الأمل، ويصرف المعزَّى عن الاكتئاب بالمصاب إلى التفاؤل بالنعمة.

ذكر الجاحظ أنه لما توفي معاوية، وجلس يزيد، دخل عليه عطاء بن أبي صيفي الثقفي، فقال[1]:

«يا أمير المؤمنين أصبحتَ قد رُزيت خليفةَ الله، وأُعطيتَ خلافةَ الله، وقد قضى معاويةُ نَحْبَهُ، فغفر الله ذنبَه، وقد أُعطيت بعده الرياسةَ، ووليت السياسةَ، فاحتسِبْ عند الله أعظمَ الرزيّة، واشكره على أفضل العطيّة».

مَنْ يُمعن النظر في الخطبة السابقة ومثيلاتها من خطب التعزية والتهنئة، يجدْ أنها صُنِعت صناعة فنية بارعة، أَوْفَت على الغاية في الدقة، إذْ تعمَّد الخطيب أن يقيم التعادلَ بين كفتين متناقضتين: كفَّةِ الحزن على السلف، وكفَّة الفرح بالخلف، وأن يشقَّ سحابة الكآبة بأضواء الرجاء. ولهذا مضى يوازن ويقارن، ويتنقّل بين ضدين تنقُّلاً حذراً لئلا يحيفَ رثاءُ الميت على مدح الحي، والخطيب على إرضاء الحيّ أحرصُ.

ومحصِّلةُ هذه الموازنة عند التحقيق تعظيمُ الحيّ وحده، لأن كلَّ ما يقالُ من إكبار للراحل هو إكبارٌ للباقي، ولأن مآثر الخليفةِ الفقيد آيلةٌ إلى التركة التي يرثها الخليفةُ الجديد. وهذا يعني أن حظَّ التهنئة من هذه الخطب أوفرُ من حظ التعزية، وأنَّها إلى الثناء أقربُ منها إلى الرثاء.

فإذا أضفتَ إلى توازن المعاني توازنَ الألفاظ، وجمالَ البديع، من طباق ومقابلة وسجع أدركت أن هذا الضرب من الخطب أبعدُ الخطب الاجتماعية عن الارتجال والاسترسال، والاعتماد على السجية، وأقربُها إلى الصنعة والفن، وأقلُّها حظّاً من الإحساس الصادق، وأوفرُها حظّاً من المجاملة الفاترة.

وهذه السمةُ من طغيان الصنعة على الطبع، والمداهنة الباردة على المشاركة الحارّة تُطالعك في أكثر الخطب المنطوية على التعزية والتهنئة، حتى إن جلساء الخلفاء - وأكثرهم ممن أدمنوا المَلَق والتزلُّف - كانوا يتحيَّرون فيما يتخيَّرون، أيؤثرون التعزيةَ، والخليفةُ الجديد يُفْتَرض فيه السرورُ بما ورث، أم يؤثرون التهنئة، والقومُ في مأتم لا في عرس؟

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٩١، الرزيّة: الرزيئة: المصيبة.

ذكر الجاحظ أنه لمَّا توفي عبد الملك بن مروان، وجلس ابنُه الوليد دخل عليه الناس، وهم لا يدرون أيهنِّئونه أم يعزّونه، فأقبل غيلانُ بن سلمة الثقفي، فسلَّم عليه، ثم قال[1]:

«يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد رُزيت خيرَ الآباء، وسُمِّيت بخير الأسماء، وأُعطيت أفضلَ الأشياء. فعظَّم الله لك على الرزيَّة الصبرَ، وأعطاك في ذلك نوافلَ الأجر، وأعانك على حُسْن الولاية والشكر، ثم قضى لعبد الملك بخير القضيَّة، وأنزله المنازلَ المَرْضيَّة، وأعانَك من بعده على الرعيَّة».

وليس فيما زعمنا من فتور العواطف انتقاص لهذا الضرب من الخطب الاجتماعية، فإن برودة الحسّ لا تلغي إنسانية الهدف، وطغيان الصنعة لا يضعف القيمة الفنية، بل يجعل الجمال اللفظي عوضاً من الانفعال النفسي، وجودة التراكيب بدلاً من عمق الأفكار.

### جـ- خطبة التأبين

الفعل الثلاثي المجرَّد أَبَن - ومضارعُه يأبُنُ ويأبِنُ - من أفعال الأضداد. لكنَّك إذا استعملته مجرّداً من المدح والذمّ ذهب معناه إلى الذمّ، فأشبه مقلوبَه (أنب)، فإذا أردت به المدح فأتبعه ما يشير إلى إرادتك - قال ابن منظور: «إذا أضربتَ عن الخير والشرّ فقلت: هو مَأْبونٌ، لم يكن إلا للشرّ... وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه نهى عن الشعر إذا أُبِنَتْ فيه النساء... وفي حديث الإفك: أشيروا عليّ في أناس أَبَنوا أهلي، أي اتّهموها.. وفي حديث أبي ذرّ أنه دخل على عثمان بن عفان فما سبَّه ولا أَبَنه أي ما عابه».

فإذا ضعَّفت عين الفعل انصرف إلى مدح الميت، وانتفى الذم. قال ابن منظور: «أبَّن الرجل تأبيناً، وأبَّله: مَدَحه بعد موته، وبكاه. قال متمّم بن نويرة:

**لعمري، وما دهري بتأبينِ هالكٍ ولا جزعاً ممَّا أصابَ، فأوجعا**

قال ابن سيده، وقد جاء في الشعر مدحاً للحيّ، وهو قول الراعي:

**فرفَّع أصحابي المطيَّ، وأبَّنوا هنيدةَ، فاشتاق العيونُ اللوامحُ»**

نخلص ممّا جاء في لسان العرب إلى أن التأبين مدحُ الميت، أو هو ضربٌ

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٩١، النوافل: العطايا والهبات.

من ضروب التعزية، جوهرُه التنويه بفضائل الميت، لا الاتّعاظُ بموته، وهو إظهارُ مناقبه، وإضمارُ مثالبه، لا مشاركةُ قومه في حزنهم عليه. ولعلَّ الغاية منه أن يتحوَّل المأتم إلى درس من دروس الأخلاق، ومجلس من مجالس التصافي والتوادّ، تُغسل فيه الألسن من الذم، والقلوب من الحقد، ويُحَثُّ فيه الأحياء على مسامحة الأموات، بعدما انقطعت صلتهم بالحياة.

وقد يتسع أفق القول في التأبين فيجمع الخطيب بين الحزن والمدح، ويضم الاعتبار بالموت إلى الإشادة بالميت.

وإذا كان التأبينُ قبل الإسلام تقليداً اجتماعيّاً، يعبّر عن الوفاء، فإنه بعد أن بزغ الإسلام أصبح خلُقاً كريماً من أخلاق المسلم، وأدباً رفيعاً، يتأدَّب به، ويُؤْجَر عليه الحيُّ والميتُ، والمؤبِّنُ والمؤبَّنُ.

وأدلُّ ما يدلُّك على هذا الجانب التربوي في التأبين أن النبيَّ ﷺ أمرنا بنشر ما أُثر عن الميت من خير، وبطيِّ ما رُميَ به من شرّ، فقال[1]: «اذكروا محاسن موتاكم». وفي باب الثناء على الميت روى النووي[2]:

«عن أنس رضي الله عنه قال: مَرُّوا بجنازة، فأثنَوْا عليها خيراً، فقال النبيُّ ﷺ: وجَبَتْ. ثم مرّوا بأخرى، فأثنَوْا عليها شرّاً، فقال النبيُّ ﷺ: وجبت. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنَّة، وهذا أثنيتم عليه شرّاً، فوجبت له النار. أنتم شهداءُ الله في الأرض».

إن الحديث النبوي، كما رأيت، خلع على التأبين نورانية الدين، فأصبحت خطبه ضرباً من ضروب البرّ والتقوى، يُشيِّع بها الأحياءُ الأمواتَ، ويودِّع بها الخلفُ السلف، فلا يُخرج المؤمن من دنياه إلى أخراه إلّا بالذكر الطيب.

ولم نقع فيما وقفنا عليه من كُتب الأدب والنقد على سمات، قيَّد بها القدماء خطبة التأبين. غير أن النصوص التي ظفرنا بها تظهر أن ما استنبطناه من ملامح تجلَّت في خطبة التعزية تكاد تماثل ما يمكن استنباطه من خطبة التأبين لاتفاق الخطبتين في الموضوع والهدف.

أولى هذه السمات أن خطب التأبين في العصر الأموي آثرت الإيجازَ على

(١) الجامع الصغير ١/ ١١٨.

(٢) رياض الصالحين/ ٣١٤ متفق عليه.

الإطالة، لأن هذه الخطب في أغلب الأحيان كانت تُلقى على قبر الميت بعد دفنه، والمشيِّعون وقوف، فلا يحسن الإطناب في هذا الموقف.

جاء في مختصر تاريخ دمشق[١] أن محمد بن علي وقف على قبر أخيه الحسن بن علي ﷺ، وقال: «يرحمك الله أبا محمد، فإن عزَّت حياتُك، فقد هدت وفاتُك، ولنعم الروحُ تضمَّنه بدنُك، ولنعم البدنُ تضمَّنه كفنُك، وكيف لا يكون هكذا، وأنت سليلُ الهدى، وحليفُ أهل التقى، وخامسُ[٢] أصحاب الكساء؟ غذتك أكفُّ الحق، وربيت في حِجْر الإسلام، ورضعت ثديَ الإيمان، وطبت حيّاً ومَيْتاً. وإن كانت أنفسُنا غيرَ طيِّبة بفراقك، فلا نشك في الخيرة لك، رحمك الله».

إن غلبة الإيجاز على خطب التأبين لم تكن قاعدة مُطَّردة، فإذا كان الفقيدُ زعيماً سياسيّاً، أو قائداً مظفَّراً، أو شخصية اجتماعية لها في المجتمع وزن، وفي الحياة شأن، وبين الناس شهرة وشرف، أو إذا كان مصرعه مأساةً موجعة، تتفطَّر لها القلوب فإن تأبينه يطول، والمشاركون في تكريمه يتبارون ليوفّوه حقَّه من الإكبار.

وربما كان الحسين بن علي ﷺ أعظم الشهداء حَظّاً من التأبين. فالتاريخ لم يحدّثنا عن عظيم من العظماء، ظفر بمثل ما ظفر به الحسين من ثناء الخطباء، ومراثي الشعراء، وتأبين المؤبِّنين. لقد قتل مظلوماً من أربعة عشر قرناً، ولمَّا تزل ألسنُ الناس تلهج بتأبينه، وتصوِّر فاجعته، وتستخلصُ منها العِظات ومن أخلاقه الشيم، وتتبارى في تقديره، وتجعل ذكراه موسماً من مواسم الإكبار والاعتبار، ومناسبةً جليلة يُبْعَث فيها التاريخُ، لتستنبط منه الحكمُ، وتُربَّى بها الأجيال.

لم يقتصر تأبينُ الحسين على أهل البيت ومَنْ شايعهم، بل شارك فيه المسلمون كافَّة، ومنهم عبد الله بن الزبير الذي اتخذ مصرعه الموجع ذريعةً،

---

(١) ٤٦/٧.

(٢) يريد ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لفاطمة: ائتيني بزوجك وابنيك. فجاءت بهم، فألقى عليهم كساءً فدكياً ثم وضع يده عليه فقال: «اللهم إن هؤلاء من آل محمد، فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد فإنك حميد مجيد».

يتذرّع بها لمعارضة الأمويين والثورة بحكمهم، فقام في مكة خطيباً، وراح يعظِّم شأنَ الحسين ويستفظع قتله، ويؤنّب أهل العراق عامَّة، وأهل الكوفة خاصَّة، ويعرِّض بيزيد على نحو أخصّ.

بدأ خطبته بحمد الله والصلاة على نبيّه، ثم أخذ يُطري خلق الحسين، وإيثاره الموت العزيز على العيش الذليل، ويستخلص من ميتته الشريفة العبرة العميقة، ويؤكّد أن قتله قَدَرٌ مقدور لا سبيل إلى دفعه.

قال ابن الزبير[1]: «... إن الله عزَّ وجلَّ لم يُطْلع على الغيب أحداً أنه مقتول، لكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة، فرحم الله حسيناً، وأخزى الله قاتل الحسين. لعمري لقد كان من خلافهم إياه، وعصيانهم ما كان في مثله واعظٌ وناه، ولكنه ما حُمَّ نازلٌ. وإذا أراد الله أمراً فلن يُدْفع».

ثم مضى يعدّد مناقب الحسين رضي الله عنه، يُطري صيامَه وقيامه، ويذكر فضلَه ونبله، ويشهد بورعه وتقاه، ويُشيد بإعراضه عن المباذل والمتارف، وعكوفه على قراءة القرآن، وبلزومه مجالس الذكر. ومن كان له مثلُ هذا الخلق فقاتلُه غويٌّ ضريٌّ، لا يُرجى منه الخير للأمَّة:

قال عبد الله بن الزبير: «... أَمَا والله لقد قتلوه، طويلاً بالليل قيامُه، كثيراً في النهار صيامُه، أحقَّ بما هم فيه منهم، وأولى به في الدين والفضل. أما والله ما كان يُبْدِل بالقرآن غناءً، ولا بالبكاء من خشية الله الحداءَ، ولا بالصيام شربَ الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركضَ في تطلاب الصيد. فسوف يلقون غيّاً».

وثانيةُ الظواهر في هذا اللون من الخطابة أن أفكاره تختلفُ باختلاف شخصيتين: شخصيةِ الخطيب وشخصية الفقيد. فقد لاحظت كيف خالطت السياسة ما أبَّنَ به عبد الله بن الزبير الحسينَ بن علي، لأن الرجلين كانا من الزعماء المرشَّحين لتولّي الخلافة، المعارضين لبني أمية. فكلاهما كان معنيّاً بأمور القيادة، مُوقَرَ الظهر بالتَّبعات الثقال التي يحتملها كلٌّ من ندب نفسه لمحاربة الجور، ومناصرة العدل.

---

(١) الوثائق السياسية/ ١٨٨.

أمَّا إذا غلب دينُ الخطيب دنياه، وتقواه هواه، فإنَّه يستسلمُ للقدر، ويحتسبُ الفقيد عند الله، ويذكرُ مناقبَه، ويدعو له بالمغفرة. بهذه المعاني أبَّن عمرُ بن عبد العزيز، وهو رأسُ الأمة، ابنه عبد الملك، فلم يذكر سياسةً ولا رئاسة، ولم يُشر إلى زعامة أو مُلك، حتى كأنَّ المؤبِّن والمؤبَّن من أغمار الناس.

قال الجاحظ[١]: «لمَّا دَفَن عمر بن عبد العزيز ابنَه عبد الملك استوى قائماً، وأحاطَ به الناس وقال:

رحمك الله يا بُنيّ، فلقد كنت برّاً بأبيك، وما زلتُ مذْ وهبك الله لي بك مسروراً. ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ بك سروراً، ولا أرجى لحظّي من الله فيك مذْ وضعتك في هذا الموضع الذي صيَّرك الله إليه. فغفر الله ذنبك، وجزاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيئتك، ورحم الله كلَّ شافع يشفعُ لك بخير من شاهد أو غائب. رضينا بقضاءِ الله، وسلَّمنا لأمره. فالحمدُ لله ربّ العالمين».

ولعلَّك لاحظت - وملاحظتُك سمةٌ ثالثة تسم هذا الضربَ من الخطابة - أنَّ ألوان الصنعة تبهت إذا توهَّجت العواطفُ، وتسطعُ إذا برد الحسّ. فإيمانُ عمر بالقضاء والقدر وحزنُه الصامت على ولده زهّداه في تحسين الكلام، فلم يحفلْ بتوازن وسجع، ولم يأبه لتنميق وتصوير، بل أرسل كلامه على الطبع والسجيّة إرسالاً طيِّعاً، يعدِلُ طاعته لله، واستسلامَه لقضائه.

وأمَّا إذا كان التأبينُ إلى المجاملة أقربَ منه إلى الحزن، وعلى تعظيم مناقب الفقيد في دنياه أحرصَ منه على التماس المغفرة له في أُخراه، فإن الخطبةَ تطغى عليها الصنعةُ، إذْ يتفرَّغ الخطيب لتزيين كلامه بألوان البديع كما يتفرَّغ لتعظيم فقيدِه بمكارم الأخلاق، فيرصِّع خطبته بالطباق والمقابلة، والسجع والتوازن، كأنه يريد أن يشاطر المؤبَّنَ شرفَ الموقف، إذْ يشهد للميت برفعة النفس ليشهد له الأحياءُ بروعة البيان. ومن هذا النمط خطبةٌ رواها الجاحظ، فقال[٢]:

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٣٤١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٠٢، مُجَنّ: مدفون مستور، جنن: قبر، رفيع العماد: كناية عن السيادة والشرف، واري الزناد: كناية عن الكرم والخصال المحمودة.

«قامتْ فرغانة بنتُ أوس بنِ حَجَر على قبر الأحنفِ بن قيس [ت: ٦٩هـ] وهي على راحلة، فقالت:

إنا لله، وإنا إليه راجعون. رحمكَ الله أبا بحر من مُجّن في جَنَن، ومُدْرَج في كفن. فوالذي ابتلانا بفقدك، وأبلغنا يومَ موتك، لقد عشتَ حميداً، ومتَّ فقيداً، ولقد كنت عظيم الحلم، فاضل السلم، رفيعَ العماد، واريَ الزناد، منيعَ الحريم، سليم الأديم. وإن كنت في المحافل لشريفاً، وعلى الأرامل لعطوفاً، ومن الناس لقريباً، وفيهم لغريباً. وإن كنت لمسوَّداً، وإلى الخلفاء لموفداً. وإن كانوا لقولك لمستمعين، ولرأيك لمتَّبعين».

ولك أن تقول بعدما استعرضت أنموذجات من خطب التأبين: إن هذا الضرب من الخطب ليس اجتماعيّاً خالصاً، وإنما هو مزيج من أفكار مختلفة، لكنها تأتلف حينما تنضوي تحت إبط الموت، لأن الموت يصل الدنيا بالآخرة، أي يشد الخطباء إلى الدين، فالسياسي من أفكارها يشوب الاجتماعي، والسياسي والاجتماعي معاً يتَّحدان في الإطار الديني.

وقولك هذا لا يجانب الصواب، بل يوافق ما ذهبنا إليه في بداية الكلام على الخطبة الدينية، حينما ذكرنا أن توزيع الخطب بين أقسام متمايزة تقسيم تقريبي، وأن الطابع الإسلامي الذي يصبغ الخطبة الدينية لا تنحسر ظلاله على الأنواع الأخرى، بل يتجلّى فيها جميعاً، فتصطبغ بصبغته، وتتألق فيها قدسيته.

### د- خطبة الإصلاح بين القبائل:

حرص الإسلام غاية الحرص على أن يطفئ وقدةَ العصبية القبلية، وأن يستلَّ السخائم الجاهلية من قلوب المتخاصمين أفراداً وجماعات، لكي يؤاخي الموتورون من وتروهم، ولكي يصنع الإسلام من العشائر المحتربة أمةً موحدة. قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠] وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٨/ ١] وأمر بردّ الفئة الباغية عن بغيها لئلا يبقى في صفوف الأمة المتراصّة ثغرةٌ للخلاف والفُرقة، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٩].

في عصر النبوة أصاب الإسلام حظّاً عظيماً من النجاح فيما سعى إليه. وتجلّى نجاحه في التفاف العرب حول النبيّ ﷺ، وفي إقرارهم بالزعامة لقريش، وفي تحوُّلهم عن الاقتتال القبلي الأرعن في البسوس وداحس والغبراء إلى الجهاد الديني المقدّس في اليرموك والقادسية ونهاوند.

فلمَّا آل الحكم إلى بني أمية استيقظت العصبياتُ القبلية كرَّة أخرى، واضطرمت نار الاقتتال بين القبائل، وراح العرب يتفاخرون بأيامهم في الجاهلية، ويُفضي بهم التفاخر إلى التنافر. فلم يطفئ الأمويون النيران التي اشتعلت، في كلِّ مكان، بل سعَّروها، وأشلَوْا قبائل الأزد واليمن على قبائل قيس ومضر، وانساق شعراء النقائض في ركاب الساسة، وجعلوا شعرهم وقوداً للفتنة، وراحوا يتفاخرون بما انطوت عليه أيامُ العرب من تفاخر وتناكر، حتى تحول المِربد إلى عكاظ، وقصرُ الخلافة إلى سرادق عمرو بن هند، وأصبحت عنجهية عمرو بن كلثوم المثلَ الأعلى، لا لتغلبَ وحدها، بل لها ولخصومها على سواء.

ومن بين السفاهة التي كانت تشلي جريراً على الفرزدق، والأخطلَ على جرير كانت الحكمة الرزان تتجلّى في بعض الأحيان داعيةً إلى المصالحة، غير أن قلوب العرب في العصر الأموي كانت أبعد تأثيراً من عقولهم في سلوكهم، فلا تكاد تظفرُ بخطيب واحد، يسعى إلى المصالحة التي سعى إليها هرم بنُ سنان حتى تلقى ألف شاعر يلهج بالعصبية الرعناء التي لهج بها عمرو بن كلثوم.

عن العقول الراجحة التي تفرَّد بها قلةٌ من الخطباء، نقل إلينا الرواةُ بعضَ الخطب الرامية إلى الإصلاح بين القبائل، وأشهرُ هذه الخطب خطبةٌ موجزة، ألقاها الأحنفُ بن قيس في الأزد ليحثَّها على مصالحة بني تميم.

كان الأحنفُ بن قيس المريّ التميمي [ت: ٧٢هـ] سيد تميم في عصر الراشدين وصدر العصر الأموي، وكان من الأبطال الشجعان، والعظماء الحكماء في زمانه، ومضربَ المثل في الحلم، وأحدَ العقلاء الذين كان عمر بن الخطاب يشاورهم، ويصغي إلى آرائهم. ومن مآثره أنه أبلى أعظم البلاء في الفتوح، وأحجم عن الخوض في الفتنة يوم الجمل. فليس مستغرباً أن ينحو في خطبه نحو الحكمة الراشدة، والدعوة إلى المصالحة، فيدعو في زمانه إلى مثل ما دعا إليه زهير بن أبي سلمى من السلام والوئام قبل الإسلام.

إذا أرسلت طرفك في خطبة الأحنف، فإنه لا يعود إليك ببيان معجز، يرقى بالخطيب إلى منزلة زياد والحجاج، ولكنه يرتدّ موقراً بالمعاني الإنسانية الصادرة عن نظرة واقعية إلى الحياة، تتجاوز التفاخر والتناحر، وتحل محلهما التجاور والتناصر، فتقدم الأخوة في العقيدة على القرابة في الدمّ، والارتباطَ بالأرض على التعصُّب للقبيلة، والاحتكامَ إلى العقل على التمادي في الرعونة، وتشتري بالإحسان قلوب الأعداء الألداء، فإذا الأزد وربيعة شركاء تميم في الوطن، وحلفاؤهم على النوائب.

روى الجاحظ الخطبة، فقال[1]:

«قال الأحنف بن قيس بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه:

يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخوانُنا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو. والله لأَزْدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزدُ الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام. فإن استشرى شَنَآنكم، وأبى حَسَكُ صدوركم ففي أموالنا وسعة أحلامنا لنا ولكم سعة».

### هـ- خطبة الوفود

لهذه الخطب الاجتماعية جذورٌ جاهلية، أَوْفَت على الغاية في الجَوْدة، وأشهرُها مجموعةٌ من الخُطب، خَطَبها وفدٌ من العرب، وفَدَ على كسرى قبل البعثة، وراح يتحدَّثُ عن حياة العرب، ويُطْري مناقبهم، ويشيد بأخلاقهم، ويصوِّر أرضَهم وسماءَهم، وجُسومَهم وحلومَهم، وبين يدي كسرى وفودٌ شهودٌ من الروم والهند والصينِ، يسمعون ما تنقلُ إلى مسامعهم ألسنةُ التراجم.

أبرزُ الخطباء[2] الذين ضمَّهم الوفد - وهم من قبائل مختلفة - النعمانُ بن المنذر ملك الحيرة، وأكثمُ بن صيفيّ التميمي، والحارثُ بن عُباد البكري، وعمروُ بن الشريد السُّلمي، وخالدُ بن جعفر الكلابي، وعَلْقَمة بن عُلاثة العامري، وقيس بن مسعود الشيباني، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي،

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٣٥، الشنآن: العداوة والبغض، استشرى: عظم وتفاقم، حسك الصدور: الحقد والعداوة.

(٢) انظر: جمهرة خطب العرب ١/ ٥٠-٦٥.

والحارث بن ظالم المرّيّ، وهم في زمانهم فرسانُ العرب وزعماءُ القبائل، وأهلُ الرأي، وأصحابُ اللسن والبيان.

ممّا قال النعمان: «.. ليست أمةٌ من الأمم إلّا وقد جهلت آباءَها وأصولها.. وليس أحدٌ من العرب إلّا يُسمّي آباءَه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابَهم، وحفظوا به أنسابَهم، فلا يدخل رجلٌ في غير قومه، ولا ينتسبُ إلى غير نسبه».

وممّا قال حاجب: «إن العرب أمة قد غلظتْ أكبادُها، واستحصدتْ مِرَّتُها، ومُنِعَتْ دِرَّتُها.. نحن وفودُها إليك، وألسنتُها لديك، ذمَّتُنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة».

ومما قال الحارث: «إن من آفة المنطق الكذبَ، ومن لؤم الأخلاق المَلَق، ومن خطل الرأي خفة الملك المسلط.. والأمرُ بيننا وبينك معتدل، ما لم يأت من قِبَلِكَ مَيْلٌ أو زَلَلٌ».

ثم بزغ فجر الإسلام، وصدع النبيُّ ﷺ بما أمره به ربُّه، فجهر بالدعوة، وهاجر إلى يثرب، وتسامعت العربُ بالدين الجديد، فأخذت وفودُها تؤمُّ المدينة، تسألُ عن العقيدة الجديدة، أو تعلنُ إيمانها بألسنة خطبائها، حتى سُمِّي العام التاسع الهجريّ عامَ الوفود، لأنه شهد السفراء والرسل والشعراء والخطباء يفدون إلى حاضرة النبوة، يشايعون ويبايعون. ومن أشهر الخطب التي نقلها الرواة عن خطباء الوفود خطبة خطبها عطارد بن حاجب بن زرارة، ذكرنا بعضها في الجزء الرابع من هذه السلسلة.

فلمّا آلت الخلافة إلى معاوية أحبَّ أن يأخذ البيعة لابنه يزيد، فكتب إلى رؤوس العرب في الأمصار كافة أن يفدوا عليه، فوفد من كل مصر قومٌ، وخطب كبارُ الوافدين[1]، فوافقه نفرٌ أبرزُهم الضحاك بن قيس الفهري، وعمرو بن سعيد الأشدق، وخالفه نفر، أشهرُهم عبدُ الله بن الزبير، وعبدُ الله بن عمر. ولمّا كانت خطب الموافقين والمخالفين مطبوعة بطابع سياسي، فقد أغفلناها، وآثرنا عليها ههنا الخطب الاجتماعية، ولو خطبها مَنْ لم يبلغوا شأوَ هؤلاء الكبار من زعماء العرب وخطبائهم.

(١) انظر: جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٤٠، والوثائق السياسية والإدارية/ ١٤٢-١٤٤.

لقد آثرنا خطب الصغار على خطب الكبار، وقبسنا من كلام الأغفال والمناكير، ولم نقبس من كلام الأعلام والمشاهير، لكي نثبت أن ملكات العرب وسجاياهم بقيت متمحِّضةً للفصاحة الفطرية، بريئة من العجمة الطارئة، تسمعها من حناجر العجائز وأفواه الأطفال، كما تتلقاها من منابر الأمراء، وألسنة الخاصة من خطباء العصر الأموي. وآثرنا كذلك أن نختار من الأغراض ما يهمُّ المرأة التي حُبس وحيدها، وما يغمُّ الصبيَّ الذي فتك به القحط، ونهكه الجوع، وأوفده الضرُّ على أولي الأمر، يمتاح بلا ضراعة، وينتصف بلا مَلَق.

وأعجبُ ما يُعْجبك من خُطَب الأغمار، إلى جانب اللسان الذُّلَق الطُّلَق، والقول الفصل، والحجة الدامغة، أنهم أُوتوا من نُضْج الفكر، واكتمال الشخصية، والثقة بالنفس، والصراحة في غير قحة ما يجعلكُ تُقدِّمُهم على أكابر الخطباء.

روى القلقشندي خبراً عن وِفادة أمِّ سنان بنتِ خَيْثمة على معاوية، جاء فيه[1]:

«حبس مروانُ بن الحكم - وهو والي المدينة في خلافة معاوية - غلاماً من بني ليث، في جناية جناها، فأتته جدَّة الغلام - وهي أمُّ سِنان بنتُ خيثمة المَذْحِجية - فكلَّمته في الغلام، فأغلظَ لها مروان».

لم تَهِن العجوز، بل ازدادتْ إصراراً على المُضيّ فيما سَعَتْ إليه، ورحلتْ من المدينة إلى دمشق وافدة على معاوية، وهي تعلم علم اليقين أنها لم تكن من المقرَّبين إلى بني أمية بعدما قدَّمت عليهم الهاشميين. جاء في الخبر:

«... خرجتْ إلى معاويةَ، فدخلتْ عليه فانتسبت فعرفَها، فقال لها: مرحباً بك يابنة خيثمة، ما أقدمك أرضَنا، وقد عهدتك تشتمينا، وتَحُضّينَ علينا عدوّنا؟ قالت: إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأعلاماً ظاهرة، وأحلاماً وافرة. لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو. وإن أَوْلى الناس باتباع ما سنَّ آباؤه لأنت. قال: صدقتِ، نحن كذلك».

في كلام العجوز ما فيه من إطراء لمعاوية بلا إزراء بعليّ. فهي لم تمدح

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٣٧٨، وأخبار الوافدات من النساء على معاوية/ ٢٣.

الأمويين بذمِّ الطالبيِّين، وإنما مدحت بني عبد مَناف كافَّة - وعبدُ مَناف هو الجدُّ الأكبر لعليّ ومعاوية - وهذا يعني أنها خاطبت معاوية بمثل ما عُرف به من دهاء، ولم تخطب بين يديه بمثل ما عُرف به علي من صراحة. والعربُ تقول: إن الحديد بالحديد يفلح.

إن معاوية، على ما عُرف به من حلم، أحبَّ أن يُحْرج العجوز بخطاب، يُعْييها أن تردَّ عليه، فقال: «صدقتِ، نحن كذلك. فكيف قولك:

**هذا عليٌّ كالهلال، تحفُّه وسطَ السماء من الكواكب أَسْعُدُ**
**خيرُ الخلائق، وابنُ عمّ محمّدٍ إنْ يَهْدِكم بالنور منه تهتدوا؟**

قالت: قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خَلَفاً بعده. فقال رجلٌ من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين؟ وهي القائلة (في رثاء علي):

**قد كنت بعدَ محمّد خلفاً، كما أوصى إليك بنا، فكنت وفيّا**
**واليوم لا خَلَفٌ، يُؤَمَّل بعده هيهاتَ نأمل بعده إنسيّا!!»**

قد يُخيَّل إليك أن معاوية وجليسه قد أصابا من أمِّ سنان مَقْتلاً، فأفحماها بما كلّماها، وبهراها بعدما زجراها، ومعهما هيبةُ الملك، ورهبةُ الخلافة. والحقُّ أن العجوز لم تَعْيَ بالرد، ولم تعزبْ عنها الفِطْرة، ولم تمضُغْ أباطيل النفاق لتظفر بطلبتها، وإنما طفقتْ تقرع الحجَّةَ بالحجة، حتى نوَّلها معاوية ما التمست. وإليك بقية خطبتها كما رواها القلقشندي[١]، وابن عبد ربه[٢]:

«... يا أمير المؤمنين، لسانٌ نَطَق، وقول صدق، ولئن تحقَّق فيك ما ظننّاه، لحظُّك الأوفرُ. والله ما أورثك الشنآنَ في قلوب المسلمين إلّا هؤلاء [تريد أمراء السوء وجُلساء التزلف]، فأَدْحِض مقالتهم، وأَبْعِدْ منزلتهم، فإنك إنْ فعلت ذلك تزدَدْ من الله قُرباً، ومن المؤمنين حبّاً. قال: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: يا سبحانَ الله! والله ما مِثْلُك مَنْ مُدِح بباطل، ولا اعْتُذِر إليه بكذب. وإنك لتعلمُ ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا. كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك. قال: ممَّن؟ قالت: من مروانَ بنِ الحكم،

(١) صبح الأعشى ١/ ٢٥٧.
(٢) العقد الفريد ١/ ١٣١، وانظر أخبار الوافدات من النساء على معاوية/ ٢٣ وما بعد.

وسعيد بن العاص. قال: وبم استحققْتُ ذلك عندكِ؟ قالت: بسَعَةِ حلمك، وكريم عفوك. قال: وإنهما يطمعان في ذلك؟ قالت: هما والله من الرأي على مثلِ ما كنتَ عليه لعثمانَ بن عفان رحمه الله تعالى. قال: والله لقد قارَبْتِ. فما حاجتُك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تَبَنَّكَ[1] بالمدينة تَبَنُّكَ مَنْ لا يريد منها البَراحَ، لا يحكم بعدل، ولا يقضي بسنة. يتتبَّع عَثَراتِ المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين. حَبَس ابن ابني، فأتيتُه، فقال: كَيْتَ وكَيْتَ، فألقمتُه أخشنَ من الحجر، وألعقْتُه أمرَّ من الصَّبِرِ. ثم رجعتُ إلى نفسي باللائمة، وقلتُ: لِم لا أصرف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه، فأتيتُك يا أمير المؤمنين، لتكونَ في أمري ناظراً، وعليه معدياً.

قال: صدقت، لا أسألُك عن ذنبه، ولا عن القيام بحجَّته. اكتبوا لها بإطلاقه. قالتْ: يا أمير المؤمنين، وأنَّى لي بالرجعة؟ وقد نفِدَ زادي، وكلَّتْ راحلتي، فأمر لها براحلة مُوَطَّأة، وخمسة آلاف درهم».

ولا يضير أم سنان أن يقطّع معاوية وجليسه خطبتها بالاعتراض والامتعاض، والتسفيه والتبكيت، وإنما يزيدها توهّجاً، وتوهّجها يقدم الدليل على براعتها في الاستهلال والارتجال، وقدرتها على وصل ما انقطع، ومعالجة ما عرض، والرد على ما يفجؤها به النذّ من مفحمات، يرتج بها على بلغاء الخطباء. ومصدر ذلك كله الصدق الخالص في كل ما تقول. والصادق ليس بين عقله ولسانه حسيب أو رقيب، فهو لذلك لا يحسن مضغ الكلام، ولا يغص بكلمة، ولا يشرق بحرف.

ومن هذا الضرب من خطب الوفود المتدفِّقة بلا ابتذال، البليغة بلا تصنُّع، خطبةٌ ألقاها صبيٌّ لما يحتلم، ويعيا بمثلها رجل مكتهل لما فيها من واقعيّةٍ في الغرض، وإقناع بالحجة، وصدقٍ في العاطفة، ودقة في التعبير.

نجمت واقعية هذه الخطبة عن معالجتها ما أصاب البادية من قحط مُهْلك، وإقناعُها عن احتجاجها بما أمر الله به من إنفاق الأموال العامة على من يستحقُّونها، وفي مصارفها المشروعة. وصدقت عاطفتها لأنها صدرت عن

(١) أقام.

تجربة شديدة الوقع، وجاءت دقَّتها في التعبير من صدورها عن فطرة بدوية، لم يَشُبْها شَوْبٌ من عُجْمَة. ولهذا كلِّه آثرنا أن نرويها تامَّة كما وردت في مختصر تاريخ دمشق[١]. وهي قسمان: خبر، ونصّ.

خلاصة الخبر: «أن البادية قحطتْ زمنَ هشام بن عبد الملك، فقدمتْ وفودُ العرب من القبائل، فجلس هشامٌ لرؤسائهم، فدخلوا عليه، وفيهم دِرْباسُ بن حبيب - وقيل: اسمُه دِرْواسُ - وله أربعَ عشرةَ سنة، عليه شملتان، وله ذؤابة. فأحجمَ القوم، وهابوا هشاماً، فوقعت عينُ هشام على درباس، فاستصغره، وقال لحاجبه: ما يشاءُ أحد أن يصلَ إليَّ إلَّا قد وصل حتّى الصبيان. فعلم درباسٌ أنه يريده».

يُخيَّل إلينا أن مَقْدَم الصبيّ إلى الخليفة مع شيوخ القبائل وأعيانها لم يكن مصادفة عارضة، وإنما كان وِفادة مقصودة، وسِفارةً مرسومة، وكأنَّ قومَه توسَّموا فيه رجاحة العقل، وفصاحة اللسان فاصطحبوه ليدرِّبوه، وأقدموه على هشام ليعلِّموه، لا ليقدِّموه. غير أن هشاماً بادرهم بما لم يتوقّعوا، فأربكهم بازدرائه الغلامَ، فأُخِذوا من حيث لا يحتسبون، فتضاعف إحجامُهم، وتهَيُّبهم، فإذا هذا اليافع الطُّلَعَةُ - وهو أصغرُ السفراء - يُغني غنَاءَ الرجال بما قال. وإليك خطبته الفذَّة:

«... علم درباس أنه - [يعني هشاماً] - يريده فقال: يا أمير المؤمنين، إن دخولي لم يضرَّكَ، ولا أنقصَكَ، ولكنّه شرَّفني. وإن هؤلاء - [يعني قومه] - قدموا لأمر، فأحجموا دونه. وإن الكلام لنشرٌ، وإن السكوت طيٌّ، لا يُعرف إلا بنشره. قال: فانشُرْ، لا أبا لك، وأعجبه كلامه».

استطاع الصبيُّ بهذه المقدِّمة المحكمة أن يُذهبَ عن قومه ذلَّة التهيُّب، وبَغْتَةَ البَهَت، فأفرخ رُوعُهم وأسلموا إليه زمام الكلام. كما استطاع أن يفتح بلسانه قلب هشام المغلق، وأن يجعل سخطَه رِضىً، فأكبره بعدما احتقره، والإكبارُ صرفه إلى الصغير، فأصغى إليه إصغاء المشوق إلى كلامه، فمضى درباس يقول:

«أصابتْنا سنونَ ثلاثٌ: فَسَنةٌ أكلت اللحم، وسنةٌ أذابت الشحم، وسنة

(١) ٨/ ١٦٥.

أَنْقَتْ العظم[١]. وفي أيديكم فضولُ أموال. فإنْ كانت لله عزَّ وجلَّ، ففرِّقوها على عباد الله، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم، فتصدَّقوا بها. فإن الله عزَّ وجلَّ يَجْزي المتصدِّقين، ولا يُضيعُ أجر المحسنين. يا أميرَ المؤمنين، أَشهدُ بالله، لقد سمعتُ أبي حبيبَ بنَ درباس بنِ لاحق يحدِّث عن أبيه عن جدِّه لاحق بن مَعَدِّ بن ذُهْلٍ أنه وفد إلى رسول الله ﷺ، فسمعه يقول: كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، وإن الواليَ من الرعية كالروح من الجسد، لا حياةَ له إلَّا بها. فاحفظْ ما اسْتَرْعاك الله عزَّ وجلّ من رعيَّته».

ما أظنُّك إلا مُعْجباً بما في هذا الكلام من تقسيم مُحْكَم، وذاكرة حافظة، ومظاهرة للرأي بالدليل. أمَّا التقسيمُ فقد تجلَّى أوَّلَ الأمر في ثلاث السنين التي اقتسمت ما في الجسوم المهزولة من لحم وشحم ونقي عظم. وتجلَّى آخر الأمر في ثلاث الطرق التي تُصْرف إليها أموال الأمة وفق الشريعة. وأمَّا الذاكرةُ الواعية فقد سردت سند الحديث قبل أن تروي متنه، وأمَّا الدليلُ فنصُّ الحديث الشريف الذي يُحمِّل الراعيَ تبعاتِ الحكم، ويكلِّفُه أن يحميَ الرعية، ويدفعَ عنها الجوعَ والخوفَ، وأن يُحْسِن رعايتها في السرَّاء والضرَّاء على سواء.

ولك أن تُضيف إلى هذه اللطائف لطيفةً أخْرى تمتَّع بها كلامُ الغلام، وهي الصراحةُ بلا وقاحة، والتلطُّف بلا تزلُّف، والاستعطاءُ بلا استخذاء، كأنَّه صاحبُ حقّ، فهو يقتضيه بالتي هي أحسنُ، لا متسوِّلٌ متوسِّلٌ، يستجدي اليدَ العليا باليدِ السُّفلى. فكيف تلقَّى هشام كلام الغلام؟ وما ردُّه عليه؟

قبل أن تسمع ردَّ هشام على الغلام يحسنُ بك أن تتذكَّر أنَّ هشاماً - والكلام للسيوطيّ[٢] -: «كان حازماً، عاقلاً، لا يُدخل بيتَ ماله مالاً حتى يشهد أربعون قَسَّامة أنه أُخِذَ من حقِّه، وأُعطيَ لكلِّ ذي حقٍّ حقُّه». وكان - والقولُ للزركلي[٣] - «حسنَ السياسةِ، يقِظاً في أمره، يباشرُ الأعمالَ بنفسه، واجتمعَ في خزائنه من المالِ ما لم يجتمعْ في خزائنِ أحدٍ من ملوك بني أميَّةَ في الشام».

---

(١) استخرجت محّه، يريد شدة المحل والبلاء.

(٢) تاريخ الخلفاء/ ٢٣٠.

(٣) الأعلام ٨/ ٨٦.

حاكم هشام كلام الغلام بعقله الذي يبصِّره بحقائق الأشياء، وبحزمه الذي يراقبُ جباية المال وإنفاقه، وبعدله الذي يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وبحلمه الذي فَسَح صدره لرعاياه، فما وجد فيما سمع غير ما يوافق الحزمَ والعقلَ والحلم والعدل. وهذه الخصال أخصُّ مناقبه، فسمع وأطاع، لا خضوعاً لمن هو دونه، بل امتثالاً لمن هو فوقه، أي صدعاً بما أمره الله به من الحكم بالسَّوِيَّة حينما استرعاه الرعيَّة، فقال:

«سمعاً لمن فهم عن الله، وذكَّر به. ثم قال هشام: ما ترك الغلامُ في واحدة عُذْراً. ثم أمر أن يُقسَم في أهل البوادي ثلاث مئة ألف، وأمر لدرباس بمئة ألف درهم. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ارْدُدْها إلى جائزة المسلمين، فإني أخافُ أن تعجز عن بلوغ كفايتهم. قال: فما لك حاجة؟ قال: تقوى الله عزَّ وجلّ، والعملُ بطاعته. قال: ثم ماذا؟ قال: ما لي حاجةٌ في خاصَّة نفسي دون عامَّة المسلمين».

وبعدُ.. فربما كانت خطبُ الوفود أرقى الخطب الاجتماعية فكراً، وأشرفَها مقصداً، وأدلَّها على نُبْل القاصد والمقصود، ولاسيّما ما رمى منها إلى إصلاح فاسد، وإنصافِ مظلوم، وما سعى إلى إحقاق حقّ، وإطعام جائع. وأعجبُ ما يُعجبك فيها انطواؤُها على شكل عفويّ من أشكال الشُّورى، يتحاور تحت ظلّه الإنسانيّ الرعاةُ والرعايا، فلا يشمخُ الحكَّام، ولا يذلُّ المحكومون.

### ٣- الخطبة الحماسية

صوَّر العصر الجاهلي بكثير من الشعر، وبقليل من الخطب اقتتالَ العرب القبليّ تصويراً حيّاً، استمدَّ أفكاره من الصراع في سبيل البقاء، وعواطفَه من التعصُّب القبلي، وصوره من صوارم السيوف وعوالي الرماح، بلا رمز غامض، ولا أسطورة مُفْتراة، فكان أدباً واقعيّاً في منظومه ومنثوره.

فلمَّا فرض الإسلام الجهادَ اتَّجهت السيوف والرماح والجياد التي أُمرت بالرباط في الثغور إلى أطراف الجزيرة العربية تُحرِّرُها وتوحِّدُها، وصدحت الحناجرُ بخطب حماسية تحرِّض الفاتحين على إحدى الحُسْنَيَيْن: الشهادةِ أو النصر.

وفي نهاية العهد الراشد ارتدَّ شطرٌ من الظُّبا والأسنة عن أعناق الأعداء في سوح الجهاد إلى نحور المقتتلين في معارك الفتنة الكبرى، وراحت ألسنة

الخطباء توجّه أسنة المحتربين، وتشايع وتبايع، وتظاهر فريقاً على فريق، حتى آل الحكمُ إلى بني أمية بعدما أُريقت دماءُ الأبرياء في سبيل الصراع على تولّي الخلافة.

ثم أُخذت البيعةُ لمعاوية، وتوقّع الناس أن ترتدّ السيوفُ كرّةً أخرى إلى سُوح الفتوح، غير أن الثورات المتتابعة في الحجاز والعراق شغلت شطراً من سواعد المجاهدين وسيوفهم، وشطراً من حناجر الخطباء وألسنتهم في اقتتال داخليّ، لا تكاد ناره تخبو حتى تستعر، ولا تكاد خطبه تخفت حتى تجأر.

عن الاقتتال الداخلي والجهاد الخارجي نجم ضربان من الخطب الحماسية: ضرب تتردد فيه أصداء الجاهلية الأولى في إطار إسلامي، وضرب لا تشوبه شائبة من عصبية أو اختلاف، لأنه عرف الوجهة الصحيحة، فاتَّجه إليها، وتجلَّى له الغرضُ الأسمى من الجهاد فيَمَّم شطره، والتزمه.

في الضرب الأول من الخطب الحماسية تجد الخطباء يظاهرون المُقْتتلين للسيطرة على الحكم، وهم فرق وأحزاب، ولكل فرقة أو حزب قواد وأجناد، يحرّض قوادُه أجنادَه على قتال حزب آخر باسم الدين زاعمين أنهم وحدهم على حقّ، وأن الأحزاب الأخرى على باطل.

أسوأُ ما يسوءُك في هذا الضرب من الخطب الحماسية الرعناء أنه يحرّض فريقاً من العرب على فريق، وحزباً من المسلمين على حزب، وأن الخطيب أيّاً كان حزبُه - وهو صنيعةُ زعيم أشلاهُ على سواه - يتَّهم بالخروج على الدين مَنْ خالفوه في الرأي، ونازعوه عُرْوَةَ الحكم، وأنَّ أجنادَ الجهاد تنتقلُ من قمم طوروسَ على تخوم الروم إلى المدينة المنورة حاضرةِ العروبة والإسلام الأولى، تحاصرُها، وتتَّهم أهلها، وهم أشرفُ العرب وجلَّةُ التابعين، بالمروق والفسوق.

جاء في الوثائق السياسية والإدارية ما يلي[1]:

«لمَّا حميَ وطيسُ القتال بين أهل المدينة وجند الخليفة يزيد بن معاوية ركب قائدُ جند يزيد مسلمُ بنُ عُقبة فرساً له، فأخذ يسير في أهل الشام، ويحرِّضهم، ويقول:

(١) ص/١٨٦.

يا أهلَ الشام، إنكم لستم بأفضلِ العربِ في أحسابها ولا أنسابها، ولا أكثرها عدداً، ولا أوسعها بلداً، ولم يخصُصْكم الله بما خصَّكم به من النصر على عدوِّكم، وحُسْن المنزلة عند أئمتكم إلَّا بطاعتكم، وحسن استقامتكم. وإنَّ هؤلاء القومَ وأشباهَهم من العرب غيَّروا، فغيَّر الله بهم، فتمُّوا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة، يُتْمِمْ الله لكم أحسنَ ما يُنيلكم من النصر والفَلْج».

وإذا كان يزيدُ بنُ معاوية قد أشلى قائدَه مسلم بنَ عُقبة على أهل المدينة، فإن التاريخ - والتاريخُ قُلَّبٌ - رمى الأمويين بعد حين ببزيد آخر من قادتهم، انقلبَ عليهم، وراح يسخر منهم، ومن قادتهم الكبار. وأبرزُهم العبَّاس بنُ الوليد بن عبد الملك، ومَسْلَمةُ بن عبد الملك، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠].

ويزيد هذا الثائر ببني أمية هو: يزيدُ بنُ المهلَّبِ بن أبي صُفْرة الأزديّ [ت: ١٠٢هـ] كان من كبار القادة والولاة في دولة بني أمية قبل أن يتمرَّد. قال الزركليّ في ترجمته: «أميرٌ من القادة الشجعان الأجواد... كان الحجَّاج يخشى بأسه... افتتح جُرْجان وطبرستان، ونابذَ بني أمية، ونشبت حروب بينه وبين أمير العراقين مسلمةَ بنِ عبد الملك» انتهت بمصرع يزيد بن المهلّب.

قبل أن يُصْرع ابنُ المهلَّب خطب في جنده خطبةً، سخر فيها من القائديْنِ الأمويْن: العباس بن الوليد ومسلمةَ بنِ عبد الملك سخريةً قاتلة، فأزرى بهما خَلْقاً وخُلُقاً، وشكلاً وأصْلاً، ولوناً ودماً، لأنهما من أبناء الإماء. ثم اتَّهمهما وقومَهما بالضلال، وحرَّض أصحابه على قتالهم، لأن الضلال داءٌ عضال، لا يشفيه إلا سَمْلُ المحاجر بالخناجر، وقطعُ الأعناق بالبواتر، فقال فيما قال[1]:

«إن هؤلاء القوم لن يردَّهم عن غَيِّهم إلَّا الطعنُ في عيونهم، والضربُ بالمَشْرَفيَّةِ على هامهم... ثم قال: إنه قد ذُكر لي أن هذه الجرادةَ الصفراءَ (يعني مسلمة بن عبد الملك) وعاقر ناقة ثمود (يعني العباس بن الوليد، وكان العباس

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٣٥٢، العرصة: الموضع الواسع لا بناء فيه، تعنينا: تخضعنا وتذلنا، الذمار: كلّ ما يلزم الإنسان حفظه وحمايته.

أزرق أحمر لأمه الرومية) [قد نُدبا لقتلي]... والله لو جاؤوا بأهلِ الأرض جميعاً، وليس إلّا أنا، ما برحتُ العَرْصَةَ حتى تكون لي، أو لهم».

قال جندُه، وقد طاف بهم طائفُ الرهبة من القتال: «نخاف أن تُعَنِّينا كما عنَّانا عبد الرحمن بن محمد. قال: إن عبد الرحمن فَضَح الذمار، وفضح حَسَبه، وهل كان يعدو أَجَله؟ ثم نزل».

ثم خطب في جيشه خطبة أخرى، ألحَّ فيها على تحقير مسلمة والعباس، ووصم جيشَهما كلَّه جُنْداً وقادةً بأنه شرذامُ من أحقر الناس، وألأم الأجناس، وعظَّم أصحابه، وبثَّ فيهم الحماسة، وهوَّن عليهم لقاء العدوّ، ووعدهم بالنصر بعد هجمة صاعقة، أو كرَّةٍ سريعة، فقال[1]:

«... ما مَسْلَمةُ إلَّا جرادةٌ صفراءُ، وأمَّا العبَّاس - [وأمه رومية] - فنسطوسُ بن نسطوس، أتاكم في برابرة وصقالبة، وجرامقة وجراجمة، وأقباط وأنباط، وأخلاطٍ من الناس. إنَّما أقبل إليكم الفلاحون والأوباشُ كأشلاء اللحم. والله ما لَقُوا قطُّ حدّاً كحدِّكم، ولا حديداً كحديدكم. أعيروني سواعدَكم ساعةً من نهار، تصفقون بها خراطيمَهم، فإنما هي غدوةٌ أو روحةٌ، حتى يحكم الله بيننا، وهو خيرُ الحاكمين».

ولعلَّك أدركتَ أن هذا الضربَ من الخُطَب الحماسية ضيّقُ الإطار، ضَحْلَ الأفكار، وأن الخطيب، مهما يُؤْتَ من البيان، يكرِّر في الثانية ما قال في الأولى، وأن حظَّه من المعاني الإسلامية أضأَلُ من أن يعينه على الإثارة، سواءٌ أكان مع الدولة أم عليها، لعلمه أنَّه، مهما يَلْوِ عُنقَ الشريعة، فلا يستطيعُ أن ينكر أن القاتل والمقتولَ، والغالبَ والمغلوب في مثل هذه الحروب سواءٌ في التمادي في الباطل.

أمَّا الضربُ الثاني من الخطب الحماسية فقد كان خطباؤُه الحداةَ في ركاب الغُزاة، والألسنةَ الناطقة بالفرض المفروض على المجاهدين في كلّ ميدان، تتردَّد أصداؤُهم في طخارستان وفرغانة من أقصى المشرق، كما تتردَّدُ في

(١) المرجع السابق ٢/ ٣٥٣، الجراجمة: أقوام من غير العرب، كانت تنزل مناطق الثغور الشمالية الجبلية بين العرب والبيزنطيين، والجرامقة: قوم من غير العرب كانوا بالموصل، الخراطيم: الأنوف.

السوسِ والأندلس من أقصى المغرب. لكنَّها على اختلافها في الميادين والمواقع متَّفقة في المعاني والمشاعر لعلَّةٍ معروفة، وهي أن أفكارها مُسْتلهمةٌ من نصوص مُنْزَلة، لا يعروها اختلافٌ ولا انحراف، ونوازعها تتحرك نحو أغراض محدّدة، لا تتغير بتغير القادة والخطباء. ومن خطباء هذا الضرب قتيبة بن مسلم الباهلي.

قال الطبريّ[١]: «أتى قتيبةُ السُّغْدَ فحصرَها شهراً، وخاف أهلُها طولَ الحصار، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة: إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب، فإن وُصِلَ إلينا كنتم أضعفَ وأذلَّ. فمهما كان عندكم من قوة فابذلوها. فجمعوا جموعَهم، وولَّوْا عليهم ابناً لخاقان، وساروا وقد أجمعوا أن يُبَيِّتوا عسكر قتيبة، ونَمَى ذلك إليه، فانتخب أهلَ النجدة والبأس، ووجوهَ الناس، وخطبهم فقال:

إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم، كلّ ذلك يفلجكم الله عليهم، فأجمعوا على أن يحتالوا غرتكم وبياتكم، واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأَبْلُوا لله بلاءً حسناً، تستوجبون به الثواب مع الذب عن أحسابكم».

إن إيجاز الخطبة السابقة لم يتح لقتيبة بن مسلم أن يكثر من معاني القرآن فيما خاطب به جنده، إذ اكتفى بالاستبسال في القتال، والإثابة على الصبر بالنصر، والدفاع عن العقيدة بالأجر، لكنه حينما خطب في جنده قبل أن يغزو طُخارُسْتان سنة ٨٦ استمد خطبته كلها من آي الذكر الحكيم إما بالمعنى وحده، وإما بالمعنى والمبنى، حتى كادت الخطبة أن تصبح خطبة دينية خالصة.

قال الطبري[٢]: «قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل الحجاج سنة ٨٦. فلما تهيأ لغزو (أَخْرُونَ) و(شومان) - وهما من بلاد طُخارُسْتانَ - خطب الناسَ وحثهم على الجهاد فقال:

إن الله أَحَلَّكم هذا المحلَّ ليعزَّ دينَه، ويذبَّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضةً، والعدوَّ وقْماً. ووعد نبيّه ﷺ النصرَ بحديث صادق، وكتاب

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٨٥.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٥٩.

ناطق، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٣] ووعدَ المجاهدين في سبيله أحسنَ الثواب، وأعظمَ الذخر عنده، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٠-١٢١]. ثم أخبر عمَّن قتل في سبيله أنه حيّ مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩]. فتنجَّزوا موعودَ ربِّكم، ووطِّنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإياكم والهُوَيْنَى».

إن ثقةَ الخطيب بأنَّ جهاده حقّ، وقيادته حقّ، لا يشوبُهما شوْبٌ من باطل الدنيا، وبأنه يَحْملُ جُندَه على القتال في سبيل الله، لا تأييداً لحزب على حزب، ولا مظاهرةً لزعيم على زعيم أتاحتْ له ما لم تُتح لخطباء الاقتتال القبليّ أو الحزبيّ من الاحتجاج بالقرآن الكريم، فقبسَ منه ما يبثُّ القوةَ في النفوس، والنخوةَ في الرؤوس، والتصميمَ في السواعد، والمضاءَ في السيوف، حتى كادت خطبتُه كلُّها أن تكون من كلام الله لا من كلامه. فغدت الحماسةُ بين فكَّيه شِرعةً إلهية، لا حميَّة جاهلية.

إن وفرةَ الآي في الخطبة السابقة لا تعني أن كلَّ الخطب الجهادية في العصر الأموي كانت تنحو هذا النحوَ الدينيَّ، وأنَّ كلَّ القادة كانوا يحفظون من كتاب الله وسنة نبيِّه ما يحفظ. لقد كان بين خطباء ذلك العصر من نشَّأه قومُه على القرآن والحديث، فامتلأ منهما عقلُه وقلبه، وازدانت بهما خطبُه، وكان بينهم المولى الذي أصاب منهما ما يفقِّهه في العبادة، ويوجِّهه في السلوك، فأوطأته شجاعته المنابر، وبها خطب.

من خطباء الفريق الثاني طارقُ بن زياد [ت: ١٠٢هـ]، وهو بربريُّ الأصل، ليثيٌّ بالولاء، أسلم على يد موسى بن نُصَير، له خطبة مشهورة، كادت تخلو من الكتاب والسنة. ارتاب في نسبتها إليه بعضُ الباحثين المحدثين، ورواها له المقريُّ وابنُ خلكان ومؤرخون آخرون. وإليك خبرها، وفقرات منها كما رواها القدماء:

«لمّا دانت بلادُ المغرب لموسى بن نصير - وكان والياً عليها من قبل الوليدِ بن عبد الملك - طَمَحَ بصرُه إلى فتح بلاد الأندلس. فبعث مولاه طارقَ بن زياد على جيش، جُلُّه من البربر سنة ٩٢هـ، فَعَبر بهم البحر، ونَمَى خبرُه إلى لُذَريق ملكِ القوط، فأقبل لمحاربته بجيش جرّار. وخاف طارقٌ أن يستحوذَ الرعبُ على جنده لقلَّتهم، فأحرق السفنَ التي أقلَّتهم حتى يقطعَ من قلوبهم كلَّ أمل في العودة، وقام فيهم، فحمدَ الله، وأثنى عليه بما هو أهلهُ، ثم حثَّهم على الجهاد، ورغَّبهم في الشهادة».

لا يعنينا ههنا ما أثير من غبار الشكّ حول إحراق السفن، وإنما يعنينا أسلوب القائد في تحميس الجند، ونصّ الخطبة.

أمَّا الأسلوب ففحواه أن لإحراق السفن وجهين: وجهاً سلبيّاً، خلاصتُه أن القيادة قطعت على الجند طريق التراجع، ووجهاً إيجابيّاً، وهو أن الجند تحوَّلوا من مُجاهدين إلى استشهاديين مختارين أو مجبرين، لأن استشهادهم في سوح الفتوح أعود عليهم بالأجر من الغرق في البحر، وهذا التحوُّلُ ضاعف اندفاعهم إلى الاستبسال في القتال.

وأمَّا النصُّ فإنه جمع بين التخويف من الجبن، والتحريض على الشجاعة، وبين الترهيب من الهرب، والترغيب في الهجوم، وانتقل بالقوم من التدرُّع بالصبر إلى توقُّع النصر. قال طارق بن زياد[1]:

«أيُّها الناس، أين المفرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامكم. وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة [يعني الأندلس] أضيعُ من الأيتام في مآدب اللئام. وقد استقبلكم عدوٌّ بجيشه، وأسلحته وأقواتُه موفورةٌ، وأنتم لا وزرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقواتَ إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم».

ولئلا يذهب الظنُّ بالجند إلى أن القيادة تُلقي بهم فريسة بين ماضغي الموت ساوى الخطيبُ نفسه بأصحابه من أكبر الفُرسان إلى أصغر المشاة في اقتحام الصفوف، وركوبِ المخاطر. ومن ساواك بنفسه فما ظلمك.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٣٩٤، عيون الأخبار ٢/ ٢٥٧، نفح الطيب ١/ ٢٢٥.

قال طارق:

«وإني لم أحذّرْكم أمراً أنا عنه بنَجْوَة، ولا حملتكم على خُطَّة، أَرْخَصُ متاعٍ فيها النفوسُ، أربأُ فيها بنفسي. واعلموا أنكم إنْ صبرتم على الأشقِّ قليلاً، استمتعتم بالأرفهِ الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظُّكم فيه أوفرُ من حظّي».

ولعلَّه أبصرَ على وجوه القوم مخايلَ شكٍّ، وسرابَ ارتياب، فأخذ على نفسه مَوْثقاً أن ينتقل من الصفِّ الأوَّل إلى الطليعة الأولى، لكي يتلقَّى بصدره الصدمةَ الأولى، وليكون وحده القُدْوَة لا المُقتدي، والأسوةَ المتفرِّدة بالتضحية الكبرى لا الفارسَ الذي يُساويه سواه. لقد نَذَرَ نفسه للفتك بكبير الإسبان في بداية المعركة وهذا الموقفُ يبثُّ أعظم الحماسة في أكباد الأجناد، ولو كانوا أضعفَ الخلق، أو كان خطيبُهم أعيا من باقل. قال طارق:

«اعلموا أني أوَّلُ مُجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند مُلْتَقَى الجمعين، حاملٌ بنفسي على طاغية القوم لُذَريق، فقاتلُه إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكتُ بعده، فقد كُفيتم أمرَه، ولن يُعْوِزَكم بطلٌ عاقل، تُسندون أمورَكم إليه. وإن هلكتُ قبلَ وصولي إليه، فاخْلُفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المُهِمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذَلون».

### ٤- الخطبة السياسية

إن ثلاثة الأقسام التي ذكرناها من خطب العصر الأموي، على ما وصلتْ إليه من رقيّ، وما اتَّسمت به من سمات، تبهتُ أضواؤُها، وتخفتُ أصداؤها إذا قُرنت بالخطبة السياسية، لأنك، إذا استثنيت بعضَ الخطب الدينية، لم تجدْ فيما سَبَق ذكرُه من الخطب ما تجد في الخطبة السياسية من الثراء الفكري، والنضج الفني، وسَوْق الأدلة والحجج، والبراعة في الحوار والمجادلة، والجمال في التصوير، والتطوُّر في وسائل التعبير، والتدفق في المشاعر.

ترى أتهيَّأتْ لرقيّ الخُطبةِ السياسية عواملُ لم تتهيَّأ لأخواتها؟ أم تأثرت بالعوامل نفسها التي تأثَّرت بها الخطب الدينية والاجتماعية والحماسية على نحوٍ أوسع وأعمق؟ وهل يحسنُ بالدارس أن يُجمل القول في الخطبة السياسية

على أنها ضربٌ واحد متعدِّدُ الأفكار؟ أم ينبغي أن يدرسها مقسَّمةً على الأحزاب المتعارضة؟

**أ- عوامل ازدهارها**

في بداية هذا الباب كنا قد ذكرنا سبعةَ عوامل ارتقتْ بالخطابة في العصر الأموي:

أوّلُها النضجُ الفكريُّ الذي ارتقى بالنثر العربيّ عامَّة، وبالخطابة خاصَّة. وثانيها بقايا حركات الارتداد التي أثارت ما كمن من عصبيّات في عصر الراشدين وأورثتهَا العصرَ الأمويَّ. وثالثها موجةُ الفتوح التي جنَّدت حناجرَ الشعراء والخطباء كما جنَّدت سواعدَ المجاهدين. ورابعُها عقابيلُ الفتنة الكبرى التي أنطقت الألسنةَ بالتنافر، فكانت ألسنة الشعراء والخطباء أسرعَها انقياداً لها. وخامسُها الفِرَقُ الدينيةُ التي حَمَلت أربابَها على الدعوة إلى مذاهبهم في حلقات المساجد وعلى منابرها. وسادسُها وفودُ الرسل على الخلفاء والأمراء من أطراف الجزيرة العربية مؤيِّدين أو مستنجدين. وسابعُها انبثاقُ العلوم الدينية واللغوية من الكتاب والسُّنَّة وما أفضتْ إليه من دعوات ومجادلات.

قد تقول - وفي قولك كثيرٌ من صواب -: ليستْ سبعةُ العوامل هذه سواءً في التأثير. فمنها ما أثّر في الخطابة عامَّة، ومنها ما أثَّر في الخطابة السياسية خاصَّة. وما أثَّر منها في السياسية ثلاثةٌ، ليس غيرُ. وهي: عقابيل الفتنة التي امتدَّ أثرها من خلافة عثمان إلى خلافة معاوية وخلافة يزيد وإمارة الحجاج. والأحزابُ السياسية التي جاهر بعضُها بالخلاف، وهادن بعض. والثوراتُ التي كانت تثورُ هنا وهناك، يُشعلُها نفرٌ من قواد الأمويين على الأمويين أنفسهم، أو رؤساءُ الأحزاب المعارضة.

هَبْنا أَخَذْنا بما اقترحْتَ، فإننا نقول: إن أربعة الأسباب التي أغفلتها أثَّرتْ في ارتقاء الخطابة السياسية على نحوٍ غير مباشر، والثلاثة التي تخيَّرْتَها أثَّرت تأثيراً مباشراً واضح المعالم، وقد سبقك إلى اختيارها وإبرازها د. شوقي ضيف، لكنَّه اختصرها بكلمة واحدة، وهي «المعارضة».

قال د. شوقي[1]: «أمّا من حيث السياسةُ، فإن هذا العصر امتاز بظهور

(١) العصر الإسلامي/ ٤٠٥.

«معارضة» جادَّة للدولة الأموية، وهي معارضةٌ كانت تدور، كما مرَّ بنا في غير موضع، على الخلافة، وهل تُقْصَر على بني أمية، أو تكون حقّاً شاملاً للمسلمين جميعاً، أو تُرَدُّ إلى بني هاشم، وأبناءِ عليّ خاصَّة، أو تكون حقّاً للعرب، فلا تختصّ بقريش؟».

وقال أيضاً[1]: «دائماً تلقانا في صفوف هذه «المعارضة» خطابةٌ كثيرةٌ، إذْ يمتشق الخطباءُ ألسنَتهم في تصوير مذاهبهم السياسية، يدعونَ لها، كما يدعون للانتقاض على بني أميّة. وكان يلقاهم أنصارُ الأمويين بخطابة مُلْتهبة، يصوِّرون فيها خروجَهم على الجماعة، وشغَبَهم، وأنَّهم يضلّون الطريق. وكلُّ ذلك هيّأَ بقوة لنشاطِ الخطابة السياسية».

### ب- تقسيمها

قد تقول: إن الخطبة السياسية قسمٌ واحد من أقسام أربعة ذُكرت في بداية هذا الباب، فعلامَ تَقْسم المقسومَ؟ أليست الخطبُ السياسية كلُّها سواءً في الدوران حولَ محور واحد، والخوضِ في غرضٍ واحد، والسعي إلى هدف واحد؟ وثلاثةُ هذه الأشياء: المحور والغرض والهدف، تلتقي في مُلْتَقىً واحد، وهو الخلاف في الخلافة، وفي الشروط التي يجبُ توافرها فيمن يتولَّاها بعد الراشدين الأربعة.

وقد تقول أيضاً: إذا كان بين الخطباء السياسيين فروقٌ فيما خطبوا، فهذه الفروق لا تمسُّ طبيعة الخطبة، ولا تصيب عناصرها الفنية، وإنما تتجلّى في الأفكار والمعاني الفرعية. أفليس من الأجدى أن تُشَدَّ الفروعُ إلى الأصل لكي تبقى خطب الأحزاب والفرق شجرةً واحدة، تتفرَّع من جذْلٍ واحدٍ، وتستقي نُسْغَ الحياة من تربة واحدة؟

نقول في الردّ على ما تقول: ارتقت الخطبةُ السياسية الأموية قمة من قمم الازدهار في تاريخ الأدب العربي ما ارتقتها من قبل، ولم تشاركْها ارتقاءَها في زمانها الخطبُ الأخرى. وعلَّةُ هذا التفرُّد أن الخطبة السياسية كانت تعبِّر عن حالة متفجِّرة من الصراع الفكري الخصيب، وتُترجم ما كان يدور في رؤوس الزعماء المتنافسين في حلبة الاستباق إلى الإمارة، وتُفصح عن آمال الرعايا الراغبة في الوصول إلى نظام، أساسُه الشورى، وهدفُه الحكمُ بالسَّوِيَّة بين الرعيَّة.

---

(١) العصر الإسلامي/ ٤٠٧.

للحفاظ على تصوير هذه الأحوال السياسية الصاخبة، ولإبراز هذا الثراء الفكري المتعدد الجوانب، وللكشف عن تداخل السياسة والدين، والعقل والعاطفة في الخطبة السياسية رأينا أن نقسم نصوصها على الأحزاب والفرق، لكي نقف القارئ على آراء كل حزب ومواقفه مُستنبطة من أفواه الخطباء، لا من ذاكرة التاريخ.

### ١) خطب الحزب الأموي

ظفر الحزب الأمويُّ بحظٍّ من المحفوظ في ذاكرة التاريخ، إذْ نقل المؤرخون كثيراً من خُطب خلفائه وأمرائه، مقرونةً بالأحداث التي سبقتها، والنتائج التي لحقتها، وأحياناً بالردود التي تلقَّتْها من المحالفين والمخالفين.

وبين هذه الخطب نصوصٌ مجملة كخطبتيْ يزيد بن معاوية وعمر بن عبد العزيز. وأخرى مفصلة كخطبتيْ زياد ابن أبيه والحجَّاج بن يوسف الثقفي. وهي على تباين الأحوال التي اقتضتها، والألسنة التي خطبتها تُفصح عن تصوُّر الخلفاء والأمراء لطبيعة الحكم الذي ندبوا أنفسَهم لاحتمال تَبعاته، وعن السياسة التي ساسوا بها الرعية لتحقيق ما تصوَّروا، لا نستثني منها غيرَ ما أُثِر عن عمر بن عبد العزيز. ولتيسير البحث قسمنا خطب الحزب الأموي قسمين: خطب الخلفاء، وخطب الولاة.

#### أ) خطب الخلفاء

ربما كانت خطبة معاوية عامَ الجماعة أدلَّ النصوص الرسمية التي بلغتنا على جوهر الحكم الأموي، ونزعته التي جمعت بين الدين والدنيا، وغلَّبت المصالح الدنيوية في إدارة الدولة على أساس من الفهم الواقعي لطبائع البشر، ذاهبةً إلى أن المنافع فوق المبادئ، لأن الكثرة الكاثرة من البشر طُلّاب مكاسب ومناصب لا عشَّاق قيم وشيم. فإن كنتَ ممَّن ينظرون إلى الحكم بعيني الفارابي خالفتَ معاوية وجافيته، وإن كنت ممَّن يُقرُّون بالنفعية حالفته ووالَيته. وإليك مناسبةَ الخطبة وأهمَّ فقراتها:

لمَّا قدمَ معاويةُ المدينة أوّلَ مرّة بعد أن خلص الأمرُ له تلقَّتْه رجالٌ من قريش ووجوهها، فقالوا: الحمدُ لله الذي أعزّ نصرَك، وأعلى أمرك. فما ردَّ

عليهم جواباً حتى قصد المسجدَ وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[١]:

«أما بعدُ، فإنّي ما - والله - وليتُ أمرَكم حين تولَّيته، وأنا أعلمُ أنكم لا تُسَرُّون بولايتي، ولا تُحبّونها. وإني لعالمٌ بما في نفوسكم من ذلك، ولكنّي خالَسْتُكم بسيفي هذا مخالسة. ولقد رُمْت نفسي على عمل ابن أبي قحافة، فلم أجدها تقوم بذلك، ولا تقدر عليه. وأردتُها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشدَّ نفوراً، وأعظم هرباً من ذلك. وحاولتها على مثل سُنيّات[٢] عثمان، فأبتْ عليَّ. وأين مثلُ هؤلاء؟ ومن يقدرُ على أعمالهم؟ هيهاتَ أن يدرك فضلَهم أحدٌ ممَّنْ بعدهم!! رحمة الله ورضوانه عليهم».

إذا أعدت النظر في الفقرة السابقة خرجتَ منها بأمور سياسية، تتحدَّث عن جانب من سياسة الدولة العربية في عصر الخلافة الراشدة، يمهّد بها معاوية للحديث عن السياسة التي يزمع أن يسوس بها دولته الجديدة.

أوّلُ هذه الأمور أن معاوية لم ينكر إعجابَه بتصميم أبي بكر وإيمانه، وعدل عمر وحزمه، ورأفة عثمان ورحمته، وأنه أراد نفسَه على أن تلتزم ما التزمه الراشدون، فلم تُطق أن تحتمل ما احتملوه من تَبعات الحكم، بل أحجمتْ عمَّا أرادها عليه.

وثانيها أنه اقتسرَ الإمارة بالجسارة لا بالجدارة، إذْ قال: «خالستكم بسيفي هذا مخالسة».

وثالثها أنه فرض نفسه على من يرفضونه. ورافضوه هم البقيةُ الباقية من الصحابة الأخيار.

ورابعُها أنه لا يضيق بما يقابلونه به من بُغْض ورفض، لأن السياسة عنده أعمالٌ ومنافعٌ، لا عواطفُ ونوازع.

بعد هذا التمهيد الصريح غاية الصراحة، المزهوِّ بالانتصار على من يسمعون خطبته أخذ معاوية يرسم قسمات السياسة النفعية التي ينوي اتباعها، فقال:

---

(١) الوثائق السياسية/ ١٢٥، المخالسة: المخاتلة والاستلاب.

(٢) ج سُنيّة، تصغير سنة.

«إني سلكت بها طريقاً، لي فيه مَنفعةٌ، ولكم فيه مثلُ ذلك، ولكلٍّ فيه مؤاكلةٌ حسنةٌ، ومشاربة جميلة ما استقامتْ السيرةُ، وحسنتْ الطاعة. فإنْ لم تجدوني خيرَكم، فأنا خير لكم. والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه. ومهما تقدمَ ممَّا قد علمتموه فقد جعلتُه دبرَ أذني، وإنْ لم تجدوني أقوم بحقِّكم كلِّه، فارضوا مني ببعضه».

بهذه الفقرة الموجزة أرسى معاوية أُسس السياسة الأموية، وهي إلى الدنيا أقربُ منها إلى الدين، وبالواقعية أشبهُ منها بالمثالية، وخطوطُها مستمدَّة من فهم النفس الإنسانية لا من الشريعة المنزلة.

**أولُ الأُسسِ** النفعيةُ المتبادلةُ، فمعاويةُ يَعِدُ مَنْ كانوا يعارضونه بأن يقاسمهم الثروة إذا عدلوا عن العصيان إلى الطاعة، ولكنَّه لا يَعدهم بأدنى حظٍّ من السلطة، وكأنَّه يريد أن يشتريَ ألسنةَ المعارضين، ولو كانت قلوبهم ملكَ سواه.

**وثانيها** قمعُ المعارضة المسلَّحة، والتغاضي عن المعارضة المسالمة.

**وثالثها** العفوُ عمَّن كانوا يظاهرون أعداءَه ليجتثَّ من قلوبهم جذورَ الحقد.

**ورابعُها** - وهو ما انطوت عليه خاتمة الخطبة - تحذيرُ الحجازيين من الثورة لأن الثورة تنتزعُ منهم النعمةَ، وتجرُّ عليهم النقمة. قال معاوية: «إيَّاكم والفتنةَ، فلا تهمُّوا بها، فإنَّها تفسد المعيشة، وتكدّر النعمة، وتدرك الاستيصال»[1].

لمّا كان معاويةُ بن أبي سفيان يؤسِّس دولة جديدة على أسس جديدة، فإنه كان على بقاء الحكم ورسوخه أحرصَ منه على العدل والشورى والتقوى، وعلى استمرار السلطة في أسرته أحرص منه على رضى البقية الباقية من أشراف قريش وجلَّة الصحابة. فإنْ أحسنت ظنَّك فيه قلت: أراد أن يُجنِّب الأمةَ الفتنةَ والاختلافَ في الخلافة بعد موته. وإنْ أسأته قلت: حَمَلته الأثرةُ على أن يجعل ولايةَ العهد فيمن لا يستحقُّها، فينقلَها من بعده إلى يزيدَ ولدِه، وفي هذا النقل تقديمُ المفضولِ على الفاضل.

---

(١) الاستئصال.

بالحلم والأناة، ومفاوضة أَهل المعارضة راح معاويةُ يَرُوضُ الناس سبعَ سنين على بيعة يزيد، كان في أثنائها يساورُ ويشاور، ويحاور ويناور، فيعطي الأقاربَ، ويُدْني الأباعد، ويتألَّفُ القلوب، ويشتري الألسنة، حتى وافقه كثيرٌ من الزعماء والخطباء وأهل الرأي أبرزُهم عبدُ الرحمن بنُ عثمان الثقفي، وعمرو بن سعيد الأشدق، والأحنفُ بن قيس، وعبدُ الله بن مَسْعَدة الفزاري.

كان معاوية يعلم علم اليقين أن موافقة من وافقوه لا تغني عن مفارقة من فارقوه، وفيهم رؤوس قريش، والعبادلة الأربعة الكبار، وأصحاب الرأي، وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، فجمعهم وخطب فيهم، فقال فيما قال[1]:

«... رأيتُ أن أستخلفَ عليكم بعدي يزيد، ورأيته لكم رِضىً، وأنتم عبادلةُ قريش وخيارُها، وأبناءُ خيارِها، ولم يمنعني أن أُحضرَ حَسَناً وحُسَيْناً إلَّا أنهما أولادُ أبيهما، على حُسْن رأيي فيهما، وشديدِ محبَّتي لهما. فردُّوا على أميرِ المؤمنين خيراً، يرحمكم الله».

بدأ عبد الله بن عباس بالردّ على معاوية، فخطب خطبة موجزة، عرّض فيها وعارض، لكنه لم يفصح عما في نفسه من ازدراء يزيد ولم يصرّح، كأنه كان يخاطب معاوية بمثل دهائه لئلا يسخطه.

ثم خطب عبد الله بن جعفر، فصرّح ولم يجمجم إذْ أنكر على الأمويين حقَّهم في الخلافة، وفضل عليهم أهل البيت وأنكر ولاية يزيد، وسفّه رأي معاوية في استبعاده الحسن والحسين ﷺ، ودعاه إلى الحكم بالكتاب والسنة، وما أثر عن العمرين، وحمَّله تبعات الحكم الثقال، فكان مما قال:

«.. إن هذه الخلافةَ إنْ أُخذ فيها بالقرآن فأُولو الأرحام بعضهم أوْلى ببعض في كتاب الله، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله فأولو رسول الله، وإنْ أُخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر، فأيُّ الناس أفضلُ وأكملُ وأحقُّ بهذا الأمر من آل الرسول؟ وايم الله لو وُلُّوه بعد نبيِّهم لوضعوا الأمر موضعه لحقِّه وصدقه، ولأُطيع الرحمنُ، وعُصيَ الشيطانُ، وما اختلفَ في الأمة سيفان. فاتقِّ الله

(١) الوثائق السياسية/ ١٤٢ وما بعد.

يا معاوية، فإنك قد صرْتَ راعياً، ونحن رعية، فانظرْ لرعيتك، فإنك مسؤول عنها غداً.

وأمّا ما ذكرتَ من ابنيْ عمِّي، وتركك أن تُحْضرهما، فوالله ما أَصَبْتَ الحق، ولا يجوز لك ذلك إلّا بهما. وإنك لتعلمُ أنَّهما مَعْدِن[١] العلمِ والكرم. فقل، أو دع، وأستغفرُ الله لي ولكم».

وعن قوسِ ابن جعفر رمى عبدُ الله بن الزبير في خطبته، إذْ حَصَر الخلافة في قريش، لكنه وازنَ وقارن، وأنكر على معاوية وقومه أن يكونوا أحقَّ بها منه ومن أهل البيت، فكيف تُؤخذ البيعةُ للمرجوح، والحسنُ والحسينُ أرجحُ وأولى، وأشرف وأعلى؟

ثم خطبَ عبد الله بن عمر بن الخطاب، فكان أجرأَ القوم، إذْ أتى بناءَ معاوية من القواعد، فدعا إلى هدم الأساس الذي يعتزم الأمويون أن يُرْسوه في تاريخ العرب، فأنكر الحكم الوراثي، وآثر عليه الشورى، ورأى أن أحقَّ الناس بالخلافة مَنْ يُجمع المسلمون على اختياره من أهل الكفاءة والعلم في قريش، فقال[٢]:

«... أمَّا بعدُ، فإن هذه الخلافة ليست بهرقليةٍ ولا قيصريةٍ ولا كسروية، يتوارثها الأبناءُ عن الآباء. ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبي. فوالله ما أدخلني مع الستَّة من أصحاب الشورى إلّا على أن الخلافة ليستْ شرطاً مشروطاً، وإنَّما هي في قريش خاصَّة لمن كان لها أهلاً، ممَّن ارتضاه المسلمون لأنفسهم، مَنْ كان أتقى وأرضى. فإن كنت تريد الصبيانَ من قريش فلعمري إن يزيد من فتيانها، واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئاً».

قبل أن تسمع خطبةَ معاوية في الردِّ على العبادلة الأربعة عليك أن تتذكَّر أنسابَهم، لأنَّ النسب هو الحجةُ الوحيدة التي يحتجُّ بها معاوية في الدفاع عن حقِّ الأمويين في الخلافة. إن الأربعة، على اجتماعهم بمعاوية في الجدِّ الأعلى قريش، ليسوا سواءً في الانتماء إلى الجدود الأَدْنَيْن. فابن عمر وابن الزبير يفارقانه، إذْ ينتمي الأوّلُ إلى عديّ، والثاني إلى أسد، وابنُ جعفر وابنُ عباس يوافقانه في الانتماء إلى عبد مناف.

---

(١) أصل أو على المثل أي جبلا عليهما.

(٢) المرجع السابق.

لم يأبه معاوية لخطبتي ابن عمر وابن الزبير، ومضى يصانع ابني عبد مناف، لا لإكبارهما وإقرارهما على حقّهما في الخلافة، بل لينتزع منهما هذا الحق، وينقله إلى ولده يزيد، لأنه يشركهما في وراثة عبد مناف، متجنّباً المرور بعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جدِّ النبي ﷺ وجدّ ابن جعفر وابن عباس، لأن المرور بهما يقطع الطريق عليه وعلى يزيد في توريث الخلافة ووراثتها، متناسياً أن الخلافة - إذا كانت وراثية - فمورِّثها محمدُ بن عبد الله لا عبدُ مناف بن قصيّ، وأن الحديث الشريف «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» ينصرف إلى المال لا إلى الخلافة، وذاهباً إلى أن الزبير لم يُسْتَخلف فيورِّث ولدَه، وأن عمر حجب الوراثة عن ولده، وأن الحكم آل إلى معاوية، فأورثه ولده. قال معاوية[١]:

«قد قلت وقلتم، وإنه قد ذهبت الآباء، وبقيت الأبناء. فابني أحبُّ إليّ من أبنائهم، مع أنَّ ابني إن قاولتموه[٢] وجد مقالاً. وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله ﷺ، فلما مضى رسول الله ﷺ ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة، غير أنهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة. وقد أخرجك الله يا بن الزبير، وأنت يا بن عمر منها. فأمّا ابنا عمّي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله».

ولعلك لاحظت أن أقوى الخمسة سُلطاناً أضعفُهم بياناً، وأنَّ كلَّ ما قيل لم يزحزح معاوية عمَّا اعتزم من تولية يزيد. لكنه حاول أن يصانع ابن عباس وابن جعفر بقوله: «أمَّا ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي». ولمعاوية وحده أن يفسِّر هذا الكلام الزئبقيَّ على النحو الذي يحلو له، لكنَّه عند التحقيق لا ينطوي على شيءٍ سوى انتزاعِ الحقِّ بالفعل ومحاباة القرابة بالقول.

ولك أن تضيف إلى ما لاحظت ظاهرتين أُخريين:

أولاهما أن الفكر الإسلاميّ لم يتجلَّ في الخطب السابقة تجلياً يُقنع القارئَ بالحجج، ويظاهر الحجج بنصوص من الكتاب والسنة. وكلُّ ما أخذ من

(١) المصدر السابق.

(٢) بمعنى فاوضتموه أو حاججتموه، مقالاً: حجة أو رأياً.

هذا الفكر كاد يقتصر على صلة المختلفين في الخلافة بالأسرة النبوية وأهل البيت، والنسب الهاشمي القرشي.

والثانية أن العناصر الفكرية شغلت الخطباء عن العناصر العاطفية والفنية، فلم يُعْنوا بإثارة العواطف عنايتهم بإقناع العقول، ولم يصوِّروا أفكارهم تصويراً مجسماً يحرِّك الخيال، ولم يُوقِّعوا جُمَلهم على إيقاع السجع والجناس، فجاءت أساليبُهم مُرْسلة، لا تبلغ ما بلغته أساليبُ الخطباء الفحول من طبقة زياد ابن أبيه والحجّاج بن يوسف.

وربّما كانت خطبة يزيد الأولى لمّا تولّى الخلافة - وهي كما يسمّيها الدارسون خطبة العرش - أدنى من الخطب السابقة فكراً وبياناً، إمّا لإحساس الخطيب بأنه تولَّى منصباً أكبر منه، ففضَّل أباه على نفسه وأصاب فيما قال. وإمّا لأن حظه من الثقافة الإسلامية ومن الموهبة الفطرية لم يَرْقَ به إلى مرتبة الفحول.

إنك لا تجد في خطبة العرش هذه ما تجد في الخُطَب الأولى التي يلقيها الزعماء من حديث عن مناهجهم السياسية، وطرائقهم في إدارة الدولة، وأهدافهم من حكم البلاد، وعلاقاتهم بالشعوب التي يتولَّوْن قيادَتها، بل تجد فيها إشارةً صادقة إلى أن الخلفاء الراشدين خيرٌ منه ومن أبيه، فتقدّر ما في خطبته من اعتراف بالاقتراف، وإقرار يدعوه إلى الاعتذار، وإن لم يعتذر. قال يزيد[1]:

«أيّها الناسُ، إن معاوية كان حبلاً من حبال الله، مدَّه الله ما شاء أن يَمُدَّه، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه. وكان دون مَنْ كان قبله، وخيراً ممّن بعده. إنْ يغفر الله له فهو أهلُه، وإنْ يعذِّبه فبذنبه. وقد وليت الأمرَ بعده، ولستُ أعتذر من جهل، ولا أشتغل بطلب علم. فعلى رسلكم، فإن الله لو أراد شيئاً كان. اذكروا الله واستغفروه».

إن الضحالة التي وَسَمتْ خطبة يزيد بميسمها ناجمة عن طبيعة الخطيب. أمَّا الخلفاء الذين تعاوروا سدَّة الحكم من بعده فقد كان فيهم خطباء بلغاء، وحكام أكفاء، كعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز.

(١) الوثائق السياسية/ ١٧٥، الحبل: له معان كثيرة منها العهد والميثاق والنور والهدى والأمان.

لقد أوتوا من القدرة والخبرة، والجدارة بالإدارة، والإحساس بتبعات الحكم ما خوَّلهم أن يتصوَّروا مناهجهم السياسية والإدارية، وأن يصوِّروها للرعية في خطبهم الأولى قبل أن يتحمَّلوا ما حُمِّلوا. وأن يستلهموا هذه المناهج من الكتاب والسنة.

في الخطبة الأولى التي خطبها عمرُ بنُ عبد العزيز رسم الخليفةُ للرعية منهجَه بجمل موجزة غايةَ الإيجاز، حتى بدتْ كأنَّها نصوصٌ قانونية، أو دستور رسميٌّ. مادتُه الأولى أن يلتزم عمر الكتاب والسنة. والثانيةُ، وهي ناجمة عن الأولى، أن يتقيَّدَ بنصوص الشريعة وأحكامها في تحليل ما حلَّلت، وتحريم ما حرَّمت. والثالثة أن الخليفة مُنفِّذٌ لا مُشرِّع، فهو لا يَقْضي برأيه واجتهاده، بل يطبِّق ما يصدر عن القضاء. والرابعةُ أن الخلافة أمانةٌ ثقيلةٌ تقصمُ الظهر، لا منصبٌ رفيع يستوجب الفخر، وعمر لذلك كلِّه أشقى الناس بالتبعة، لا أسعدُهُم بالمنصب. قال عمر بن عبد العزيز[١]:

«أمَّا بعدُ، فإنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ، ولا بعد الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب. أَلَا إنّ ما أحلَّ الله حَلال إلى يوم القيامة، وما حرَّم الله حرامٌ إلى يوم القيامة. ألا وإني لست بقاضٍ، ولكني مُنفذٌ. ألا وإني لستُ بمبتدعٍ، ولكني مُتَّبع. ألا إنه ليس لأحدٍ أن يُطاع في معصية الله. ألا وإني لستُ بخيركم، ولكني رجلٌ منكم، غيرَ أن الله جَعَلني أثقَلَكم حملاً».

ومع مرور الزمن أخذت الخطبة التي نُسَمّيها على سبيل التجوّز «خطبة البيعة» تتطور وتزدهر مضموناً وشكلاً، وطفق الخلفاء المتأخرون يفصّلون ما كان يجمله المتقدّمون، ويرسمون حينما يبايعون مناهجهم في الحكم، ويحدّدون أساليبهم في الإدارة، ويبشرون أو ينذرون بعلاقتهم بالرعية.

من هذه الخطب المفصّلة خطبة ألقاها يزيد بن الوليد بن عبد الملك [ت: ١٢٦هـ] يوم بويع بالخلافة. وكان قد ثار بابن عمه الوليد بن يزيد، وعلّل ثورته بفساد سلفه وبطانته، وبتطوّحه بين الدنان والقيان، وتماديه في الفسوق والمجون، فقال[٢]: «أيها الناس، والله ما خرجت أَشَراً ولا بَطَراً، ولا حرصاً

(١) الوثائق السياسية/ ٤١٧ عن طبقات ابن سعد.
(٢) الوثائق السياسية/ ٥٠٧، العقد الفريد ٤/ ٩٥.

على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطراءُ نفسي، وإني لظلوم لها إن لم يرحمني الله. ولكنْ خرجت غضباً لله ودينه، داعياً إلى الله، وإلى سنة نبيّه، لمّا هُدمت معالم الهُدى، وأُطفئ نورُ أهل التقوى، وظهر الجبّار العنيد، المستحلُّ لكلّ حرمة، والراكب لكلّ بدعة».

ثم راح يبصِّرُ الرعيةَ بسياسته الداخلية، وأبرزُ ما أبرز منها الشؤونُ المالية، لأنها أهمُّ ما يهمُّ الناس، ويمكن تلخيص سياسته بأمور: أولُها أن تُنفق الدولةُ على كلِّ إقليم ما يُجْبى من ضرائبه، فإن فَضَل من المال فَضْلٌ نُقل إلى إقليم يجاورُه. وثانيها أن يُشْكيَ الخليفةُ كلَّ من يشكو إليه من ظُلامة. والثالثُ ألّا يطيل مكث الجنود في الثغور التي يرابطون فيها. والرابعُ ألَّا يرهق أهل الكتاب بالجزية. والخامسُ أن توزع الأعطياتُ في أوقاتها.

قال يزيد بن الوليد[١]: «أيّها الناس، إن لكم عليَّ ألَّا أضع حجراً على حجر، ولا لبنةً على لبنة، ولا أكري نهراً، ولا أكنز مالاً، ولا أُعطيه زوجاً ولا ولداً، ولا أنقله من بلد إلى بلد حتى أسدَّ فقر ذلك البلد وخصاصةَ أهله. فإنْ فضلَ فضلٌ، نقلتُه إلى البلد الذي يليه. ولا أجمّركم في بعوثكم، وأفتن أَهْلَكم. ولا أغلق بابي دونكم، فيأكل قويُّكم ضعيفَكم. ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أُجليهم به عن بلادهم، وأقطعُ به نسلهم. ولكم عليَّ إدرارُ العطاء في كلّ سنة، والرزق في كلّ شهر، حتى يستويَ بكم الحالُ، فيكونَ أفضلكُم كأدناكم».

وأجود ما في هذه الخطبة السياسية خاتمتها المنطوية على عقد يحدد علاقة الحاكم بالمحكوم، أو الخليفة بالرعية، وفحوى هذا العقد أن على الرعية أن تطيع الخليفة ما دام يحكم بالعدل، فإن ظلم جاز لها عصيانه وخلعه.

قال يزيد: «فإن وفيت لكم، فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة والمكانفة[٢]. وإنْ لم أفِ لكم فعليكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني. فإن تبت قبلتم مني، وإن عرفتم أحداً يقوم مقامي، ممّن يعرف بالصلاح، يعطيكم من

(١) المرجع السابق، والبيان والتبيين ٢/ ١٤١، جمّرهم: أبقاهم في الثغور في مواجهة العدو ولم يأذن لهم بالعودة إلى أهلهم.

(٢) المعاونة.

نفسه مثل الذي أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه، فأنا أوّلُ من بايعه، ودخل في طاعته».

سبق أن وضعنا بين يديك خطبة يزيد الأول [ت: ٦٤هـ] ووقفناك على ما فيها من ضحالة، لا تليق بما سميناه «خطبة البيعة». وها نحن أولاء نضع بين يديك خطبة يزيد الثاني لتقف على ما فيها من نضج فكري، ورقي فني. تجلّى نضج الفكر في عمق الإدراك، ووضوح التصوّر للمفاهيم والأبعاد السياسية، ودقة التحليل لما يهمّ الشعب من سلوك الحاكم. وتجلَّى الرقيُّ الفنيُّ في وحدة الموضوع، وتسلسل المعاني، من البداية إلى النهاية، وسوق الأدلة، فما تعليلُ هذا التطوّر؟

قد تعلِّله تعليلاً زمنيّاً فتقول - وقولُك حقٌّ -: بين الخطبتين ستةُ عقود، نَمَت في أثنائها الخطبةُ السياسية نُموّاً طبيعيّاً، نَقَلها من حالٍ إلى حال، كما تنمو الأحياء كلُّها، لا أجناسُ الأدب، وحسب.

وممَّا يُؤْخذ على الاكتفاء بهذا التعليل أنَّ في الخطابة عنصراً ذاتيّاً، لا يمكنُ إغفاله، وهو شخصيةُ الخطيب. فيزيدُ بن معاوية - كما يُخيَّل إلينا - لم يكن مستعِدّاً ولا مُعَدّاً لأن يخوض غمار السياسة. بل كان على اللهو والخوض في غمار اللذات أحرصَ منه على الجدِّ واحتمال التبعات، وإلى البطش بالمعارضين أقربَ منه إلى محاورتهم. والسياسةُ تحتكم إلى الحكمة، قبل أن تحكمَ بالسيف. فمن أين تأتيه النجابة في الخطابة؟

أمَّا يزيد بن الوليد فقد كان من أهل الورع والصلاح. قال نشوان الحميريّ - وقولُه ممَّا أورده الزركلي في ترجمته -: «لم يكن في بني أمية مثلُه ومثلُ عمر بن عبد العزيز» وقولُه يعني أن فيه من التقوى والعدل والاعتماد على العقل في السياسة، والتضلُّع من الشريعة، والحفاظ على مصالح الأمة وأموالها العامة، ومن الإحساس بفداحة التبعة ما جعله شبيهاً بعمر بن عبد العزيز في السياسة والخطابة. ولذلك ضاقت بهما البطانةُ التي تعوَّدت أن تتزلَّف وتتلقَّف، وتُصيبَ من أموال الدولة ما ليس لها بحقّ، حتى قيل: إنهما ماتا مَسْمومَيْنِ.

ولك أن تضيف علةً ثالثة، فعلتْ فعلها في الارتقاء بالخطابة، وهي أن العقدَ الأخير من العصر الأموي شهد تطوراً فكرياً وسياسياً، اشتدّت فيه

المعارضة، ونشطت المحاورات، وارتفعت أصوات الحناجر فوق المنابر، وأحسّ الولاة الخطر، ونبهوا عليه الخلفاء، فتلقى بعضهم نذر الخطر بالشدة على المعارضين، وتلقاها بعضهم - ومنهم يزيد الثاني - بإيثار الشورى على الشدة، والمشاركة على التفرد، وعبّروا بخطبهم السياسية عن هذا المطلب المرجوّ من الحرية في التفكير.

ب) خطب الولاة والأمراء

ظهر في العصر الأموي بين الولاة والأمراء عددٌ من الخطباء، بزُّوا أو كادوا يبزُّون فيما خطبوا من خطب سياسية أفصحَ الخطباء من الخلفاء الأمويين الذين عرفوا بالبيان واللسن. وأبرزُ هؤلاء الولاة عتبةُ بن أبي سفيان، والمغيرةُ بن شعبة، وزياد ابن أبيه، وروحُ بن زنباع، والحجّاجُ بن يوسف، وخالدُ بن عبد الله القسري.

لقد أُوتي هؤلاء الخطباءُ من المضاء والدهاء في السياسة، والجدارة في الإدارة والإمارة مثلَ ما أوتوا من النجابة في الخطابة. ولا يبالغ من يزعم من المؤرِّخين أنهم كانوا الأركان الراسخة التي أرسى بها وعليها الأمويّون حكمَهم بعدما كادت الثورات والفتن تعصف به، ولا سيّما في الأقاليم المتمردة كالعراقين ومصر.

كان عتبة بن أبي سفيان [ت: ٤٤هـ] - وهو أخو معاوية - أحد الولاة الأكفاء الذين عملوا على تثبيت الحكم الأموي في مصر عقبَ الصراع بين علي ومعاوية، وبعد أن طمعت الأقاليم النائية عن دمشق في العصيان. نوّه به الزركلي، فقال في ترجمته: «كان عاقلاً فصيحاً مهيباً من فحول بني أمية» وسبقه إلى التنويه به الأصمعي، فقال: «الخطباء من بني أمية عتبة بن أبي سفيان، وعبد الملك»، ولم يذكر معاوية ولا عمر بن عبد العزيز على ما عرفا به من ذكاء وبيان. وتخصيص عتبة بالذكر دليل مكانته وبلاغته.

من أبلغ ما أثر عنه خطبةٌ خطبها في مصر، حلّل فيها أدقَّ تحليل علاقة الرعاة بالرعية، إذْ ربط جباية الخراج بضمان الأمان، وفضل العقل والعدل على البطش والجور، وبيَّنَ أن بَيْن الحاكم والمحكوم عقداً يجب التزامُه، إنْ نقضه الحاكمُ فمن حقِّ الرعية الامتناعُ عن دفع الضرائب، وإن نقضه المحكوم فمن

حقّ الحاكم أن يعاقب المتمرِّدين، وأن يستخرج منهم ما يفي بالنفقة على إدارة البلاد. وإليك خبر الخطبة ونصَّها:

وجَّه عتبةُ بن أبي سفيان ابنَ أخي الأعور السلميّ إلى مصر، فمنعوه الخراجَ. فقدم عليهم عتبة فقام فيهم خطيباً، فقال[١]:

«يا أهلَ مصر، قد كنتم تعتذرون لبعض المَنْع منكم ببعضِ الجَوْر عليكم. فقد وَلِيكم مَنْ يقول ويفعل، ويفعل ويقول. فإنْ رَدَدْتم ردَّكم بيده، وإن استعصَيْتم ردَّكم بسيفه، ثم رجا في الآخر ما أمَّل في الأول. إن البيعةَ مُشايعة: فلنا عليكم السمعُ والطاعة، ولكم علينا العدلُ. فأيُّنا غَدَرَ، فلا ذِمَّة له عند صاحبه. والله ما انطلقتْ ألسنتُنا حتى عُقِدتْ عليها قلوبُنا، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز، ومن حذّر كمن بشّر».

قال راوي الخطبة: «فنادَوْه: سمعاً وطاعة، فناداهم: عدلاً عدلاً».

إنك لا تشكُّ في أن هذه الخطبة ونظائرَها ساعدت بني أمية على ترسيخ الحكم المزعزع، واستمرار الطاعة لهم، والإبقاء على الموارد المالية مِدْراراً، يُجيِّشون بها الجيوش والشُّرَط، ويُنفقون منها على الصنائع والأتباع، ويُغدقون منها على الشعراء والمتزلِّفين، وهم كثر.

وإذا كان عتبةُ قد احتلب أخلافَ المخالفين في مصر حتى درَّتْ، فإن المغيرة بن شعبة [ت: ٥٠هـ] أخمد فتنة الكوفة حتى استقرّت. والمغيرةُ هذا كان أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم، لُقِّب لذكائه ودهائه، وبلاغته وفصاحته «مغيرة الرأي». تولَّى البصرة والكوفة أيام عمر بن الخطاب وتولَّاهما أيام معاوية، فكان في العهدين من أعظم الولاة، وأقدرهم على تلافي الفتن بالفعل والقول.

نَمَى إلى المغيرة بن شعبة - وهو أميرٌ على الكوفة - أن الخوارج خارجةٌ عليه، فقام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[٢]:

«أما بعدُ، فقد علمتم أيُّها الناس أني لم أَزَلْ أحبُّ لجماعتكم العافيةَ، وأكفُّ عنكم الأذى، وإني والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك دَأْبَ سوءٍ لسفهائكم.

---

(١) الوثائق السياسية/ ١٢٠.

(٢) الوثائق السياسية/ ١٠٦، يعصب: يُؤخذ أو يُقرن، نكالاً: عبرةً تصرف غيرهم وتردعهم عن ارتكاب مثل ما ارتكبوا.

فأمَّا الحلماء الأتقياءُ فلا. وايمُ الله لقد خشيت ألّا أجدَ بدّاً من أن يُعْصَبَ الحليمُ التقيُّ بذنب السفيه الجاهل، فكفُّوا أيها الناس سفهاءَكم قبل أن يشملَ البلاءُ عوامَّكم. وقد ذُكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يَظْهَروا في المصر بالشقاق والخلاف. وايمُ الله لا يخرجون في حيّ من أحياء العرب في هذا المصر إلّا أبدتُهم، وجعلتُهم نكالاً لمَنْ بعدهم، فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم. فقد قمت هذا المقامَ إرادةَ الحجّة والإعذار».

وما نظنُّك إلا مُعْجباً بهذا التدرُّج من الخير إلى الشرّ، ومن التودُّد إلى التوعّد. لقد تَلَطَّف في التودُّد إلى الحكماء قبل أن يَعْنُفَ في توعُّد السفهاء، فقطع الطريق على من تراودهم بوادر الفتنة. ثم مضى يُشلي فريقاً منهم على فريق، لكي يحارب بعضُهم بعضاً قبل أن يحاربوه، فيستريحَ من الفريقين بلا قتال. وكأنه يردِّد قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥].

علّق الطبريُّ على هذه الخطبة، فقال[١]: «فخرجت الرؤساءُ إلى عشائرهم، فناشدوهم الله والإسلامَ إلّا دلُّوهم على مَنْ يرون أنه يريدُ أن يَهيجَ فتنةً، أو يُفارق جماعة».

وربَّما كان زياد ابن أبيه [ت: ٥٣هـ] أضعفَ من عتبة ترغيباً، وأعنفَ من ابن شعبة ترهيباً، لكنه أجودُ منهما خطابة. وأشهرُ ما اشتهر به خطبتُه البتراء التي سُمِّيت بهذا الاسم لأنه لم يحمد الله، ولم يصلِّ فيها على النبيِّ ﷺ. وإذا اغتفرتَ له هذه الهفوة، وقَرَنْتَ البتراءَ بنظائرِها، فإنك واجدٌ فيها من تساوق الأفكار، وتدفُّق المشاعر، وجمال الصور، وتناغم التراكيب، وجزالة الألفاظ ما لا تجدُ ما يضارعُه في كلِّ ما مرَّ بك من خُطب العصر الأموي. وحسْبُنا ههنا أن نقفكَ على فقرات منها لكي تقدِّر زياداً حقَّ قدره.

روى الجاحظ والطبريّ وابنُ عبد ربه وكثيرٌ من المؤرخين والأدباء[٢] مناسبة الخطبة ونَصَّها، فقالوا: «قدم زياد البصرة غُرَّة جُمادى الأولى سنة

(١) تاريخ الطبري، ط التجارية ٤/ ١٤٠.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، وشرح نهج البلاغة، وعيون الأخبار، والبداية والنهاية، والأخبار الطوال.

خمس وأربعين والياً لمعاوية بن أبي سفيان، وضمَّ إليه خراسان وسجستان، والفِسْقُ بالبصرة كثيرٌ فاشٍ ظاهرٌ، فخطب خطبةً بتراءَ، لم يحمد الله فيها..».

بدأ زياد خطبته بداية عنيفة، انقضَّ فيها على أهل البصرة انقضاضَ الصاعقة الماحقة، فقال: «إن الجهالة الجهلاء، والضلالةَ العمياء، والغيَّ الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتملُ عليه حلماؤكم من الأمور العظام، يَنْبتُ فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير... ألم يكن منكم نُهاةٌ، تمنع الغُواةَ عن دلج الليل، وغارة النهار؟ قَرَّبتم القرابةَ، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتُغْضون على المختلس، كلُّ امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه، صنيعَ مَنْ لا يخافُ عاقبةً، ولا يرجو معاداً».

ثم رسم خطوطَ السياسة التي يُزْمع أن يسوس بها أهل العراق، فإذا هي يسيرٌ من الرحمة، وكثيرٌ من النقمة، تميلُ عن الترغيب إلى الترهيب، وتقدِّم العقوبةَ على المثوبة، وتصبُّ حُمم الغضب على المذنب والبريء لكي تجتث الشرَّ من جذوره.

قال زياد[١]: «.. حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صلح به أوّلُه: لينٌ في غير ضعف، وشدّة في غير عنف. وإني أقسم بالله لآخذن الوليّ بالمولى[٢]، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه، فيقول: انجُ سعد فقد هلك سعيد[٣]، أو تستقيم قناتكم[٤]..».

وأعلنَ على الملأ ضروباً من العقاب مُروِّعة، وأنماطاً من الحدود مُرعبة، لكنَّ كلَّ ضرب من جنس الذنب، فلا تستطيع إلَّا أن تتغمَّد قسوته بالعذر، لأنَّ الغاية من نشر الذعر ضمانُ الأمان. قال زياد:

---

(١) الوثائق السياسية/ ١١٣ وما بعد.

(٢) لها معان كثيرة وربما أرادها جميعاً: السيد بعبده، وابن العم بابن عمه، والقريب بقريبه، والجار بجاره والشريك بشريكه، والحليف بحليفه، والرجل بصهره.

(٣) هذا مثل.

(٤) القنا: العصا وربما أراد هنا أمركم.

«إيَّايَ ودعوى الجاهلية، فإني لا أجدُ أحداً دعا بها إلَّا قطعتُ لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكلِّ ذنب عقوبةً: فمن غرَّقَ قوماً غرَّقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نَقَبْنا عن قلبه، ومن نَبَش قبراً دفنَّاه حيّاً فيه..».

وقبل أن يفرغ من الخطبة فثأَ غضبَه، وأطفأ وقدته. ولعلَّه أبصر الازدجارَ في عيون الناس، فكفَّ عن الهدْر والزَّأْر، وكبح الجماحَ بالسياسة، فذكَّر القومَ بما عليهم من طاعة، وواثقهم على أن يكافئ الطاعة بالعدل، ويفتحَ بابه للمظلوم، ويُشْكيَ كلَّ ذي شكاة، ويتقبَّل النصح، ويلتزم الحكم بالشورى.

قال زياد: «أيُّها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً، نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلنا. فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما ولينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصَّرْتُ عنه، فلن أقصّر عن ثلاث: لست مُحتجباً عن طالب حاجة منكم، ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبَّانه، ولا مجمّراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستُكم المؤدّبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون. ومتى يصلحوا تصلحوا».

أصابت خطبةُ زياد هذه - على ما رُميت به من بتر - نصيباً من الشهرة، وحظّاً من التقدير، لم يُصِبْ مثلَهما كثيرٌ من خطب الخلفاء، وعلى رأسهم معاوية وعبد الملك، وغدت في العصر الأموي ضريعةَ خطبة عليّ الشقشقيّة في العصر الراشدي، ثم امتدَّ الإعجابُ بها من عصرٍ إلى عصر، حتى ردَّد أصداءَه الدارسون المحدثون. قال الشعبي - واسمه عامر بن شراحيل - [ت: ١٠٣] في إطرائها وإطراء صاحبها: «ما رأيتُ أحداً أَخْطَبَ من زياد». وقال أيضاً: «ما سمعتُ متكلِّماً على منبر قطُّ، تكلَّم فأحسن، إلّا أحببتُ أن يسكت، خوفَ أن يسيءَ إلا زياداً، فإنه كلما أكثر كانَ أجود كلاماً».

وفي العصر الحديث بالغ د. شوقي ضيف في إطراءِ الخطبة والخطيب[١]، حتى ذهب إلى أن زياداً «لم يكن ذا عقل فطريّ بسيط. فعقلُه مدعم بالفكر الجديد، وهو الفكر الذي يُسيغ ما لدى الأجانب من نظرية التفويض الإلهي

(١) الفن ومذاهبه في النثر/ ٨١ وما بعد.

وغيرها». ولا ندري كيف ذهب به الغلوُّ هذا المذهب، وهو يعلم أن زياداً مات سنة ٥٣هـ، أي قبل أن تخالط الثقافاتُ الأجنبية الفكر العربي، وأنه خطب بتراءَه تلك سنة خمس وأربعين.

لعلّ د. شوقي ضيف استنبط هذا الرأي من قول زياد: «نسوسُكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلنا». وقولُه هذا ليس بجديد، فالقرآنُ الكريم ألحَّ على ذكر الحق الإلهي أو التفويض أو الاستخلاف[1] في أكثر من آية، إذْ قال جلّ ذكره: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥]، وقال أيضاً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٦]. وعمر بن الخطاب ﷺ أبرزَ هذا التفويض حينما قال لأحد الولاة: «إن الله استخلفنا على عباده لنسدَّ جَوْعَتَهم، ونستر عورتهم، ونضمن لهم حرفتهم...».

الرأيُ عندنا أن زياداً لم يقتبس فكرة التفويض الإلهي من ثقافة أجنبية شرقية أو غربية، وإنما أخذها من القرآن الكريم ومن التراث الإسلامي لحاجة في نفسه ونفس معاوية، وهي أن يؤكّد حقَّ بني أمية في الحكم، لكي يُجابه الحججَ الدامغة التي ينافح بها الشيعةُ عن حقِّ عليٍّ وبنيه في الخلافة.

وممَّا يدلُّك على أن الأمويين خلفاءَهم وأمراءَهم كانوا يتشبَّثون بالحق الإلهي في الحكم، وأن تشدُّقهم به لا صلة له بثقافة مستوردة أن خطباءَهم ظلّوا ينزعون عن هذه القوس حتى نهاية العصر الأموي. وعلَّةُ هذا التشبُّث اعتقادُهم غير المُعْلَن أنهم إذا تخلّوا عن هذا الحق لم يبق لهم ما يسوِّغون به تفردهم بالسلطة.

وإذا كان زياد ابن أبيه قد ألحَّ على الإشادة بهذه الفكرة في خطبةٍ خطبها سنة خمس وأربعين، فإن خالد بن عبد الله القسريّ [ت: ١٢٦هـ] كان أشدَّ إلحاحاً عليها في خطبة خطبها بعدما يقربُ من ثمانين سنة، إذْ زعم أن الله خصَّ الأمويين بالخلافة من دون الناس كافَّة بعدما ذكر أنَّ الله فَرَض على

(١) من معاني الاستخلاف في القرآن الكريم: الإسكان والتمليك، وإمضاء أحكام الله وأوامره.

المسلمين الحج إلى مكة خاصَّة من دون الأقطار والأمصار كافَّة. ثم أمعن فيما أعلن، فادَّعى أن أوامر الخليفة نصوص مقدَّسة، لا تجوزُ مناقشتها. فقال وهو يخطب في مكة[١]:

«يا أيُّها الناسُ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمةً، وهي التي اختار الله من البلدان، فوضعَ بها بيته، ثم كتبَ على عباده حجَّه، مَن استطاع إليه سبيلاً. أيُّها الناس، فعليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، وإياكم والشبهاتِ، فإني والله ما أُوتَى بأحدٍ يطعن على إمامه إلا صلبتُه في الحرم.

إنَّ الله جعلَ الخلافةَ منه بالموضع الذي جعَلَها، فسلّموا وأطيعوا، ولا تقولوا: كَيْتَ وكَيْتَ. إنه لا رأيَ فيما كتب به الخليفةُ أو رآه إلَّا إمضاؤُه». ولولا بقية من دين، وسؤرٌ من حياء لقال: لا يُسْألُ عمَّا يفعل وهم يُسألون، غير أنه - كما يُخيَّل إلينا - أمسك لئلا يُؤْخَذَ بما اتّهم به من زندقة.

وزبدةُ القول في «التفويض الإلهي» أن بين الدارسين المحدثين من ينسبون كلَّ رأي يقفون عليه في تراث العرب إلى الفكر الأجنبي، ثم يزعمون أنهم اكتشفوا جديداً لم يكتشفه أحدٌ من قبل، وما يفعلونه يُوهمهم أنهم ابتكروا وأبصروا ما عميت عنه عيون الآخرين. وحقيقةُ الأمر أنهم يبخسون القدماء أشياءهم ويعظِّمون أنفسهم، ويُكْبرون الدخيل بتحقير الأصيل.

ونحن على ضيقنا بما في خطب الولاة من أفكار تخالفُ ما دعا إليه القرآن من الشورى ومن التعاون على البرّ والتقوى، وتُغْفل ما حضَّ عليه الحديث من التناصح، لا نَغْمطُ فحولةَ الولاة في الخطابة، بل نقرُّ لهم بالإجادة فيها تصويراً وتعبيراً، وتدفُّقاً وجزالة، وبياناً وإتقاناً.

إن التجرّد للحق في البحث يقتضي بأن نُنْصف الخطباءَ، وننوِّه بمقدرتهم، وإنصافُهم لا يقفُ بنا عند حدود الإعجاب بهؤلاء البلغاء، بل يجاوزهُ إلى مُرْتَقىً أعلى. إنّنا نزعمُ أن فحول الخطباء من الولاة بزّوا في فنِّ الخطابة فحولَ الخطباء من الخلفاء كمعاوية وعبد الملك. فكيف نعلّل هذا الزعم؟

نعلّل ما زعمنا بعلَّتين: أولاهما طبيعةُ الحكم الذي ابتدعه الأمويون، وفرضوه على العرب، إذْ حوّلوا الخلافةَ - والرأي لعبد الله بن عمر - من حكم

(١) الوثائق السياسية/ ٣٩٢.

عربي إسلامي، أساسُه الشورى والنجابة، إلى ملكية هرقلية أو كسروية، أساسُها الوراثة والقرابة. والوراثةُ قد تأتي بخليفة ناضج الفكر، طلق اللسان كعبد الملك بن مروان، وقد تأتي بخليفة عابث، كليلِ الأصغرين كيزيد بن معاوية.

أمّا الولاة والأمراءُ والقادة فإن مواهبَهم الفكرية والإدارية هي التي تبوِّئُهم ما يتبوَّؤون، فيبرز منهم القادة والرادة والإداريون والسياسيون والدهاة والقضاة، والبلغاء والخطباء، من طبقة زياد ابن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي.

والعلة الثانية أن كثيراً من أبناء الخلفاء الذين صارت إليهم الخلافة بالوراثة عاشوا في القصور بين السرف والترف، والغلمان والقيان، فلم يُصيبوا من فصاحة البداوة ما يخوِّلهم ارتقاءَ المنابر، فلمَّا أُريدوا على ارتقائها لم يجدوا في حناجرهم ما يُخاطبون به الناس. ومن تكلَّف منهم ما لا يُحْسِن خَبَا وكبا.

### ٢) خطب أهل البيت والشيعة

بعد مقتل عليّ بن أبي طالب [ت: ٤٠هـ] كرم الله وجهه كان الشغل الشاغل لمعاوية أن ينتزع من أهل البيت حقَّهم في الخلافة لكي يسوّغ ظفره بها، ويضمن إجماع الأمّة على مبايعته، ولم يُظْفِره بطلبته هذه دهاؤُه أو سيفُه، وإنما أَظْفَرَهُ بها تنازُل الحسن بن علي عن حقّه فيها، وهذا التنازل أغضب فريقاً من شيعته، فسكت مَنْ سكت منهم على مضض، وتربَّص للثأر مَنْ تربّص على تنمُّر.

فلمَّا بويع ليزيد بن معاوية، ولم يكن أحقَّ الناس بالبيعة، وثار به الحسين بن علي ﷺ صارت الكلمة العليا في حزب الشيعة لمن برموا بتنازل الحسن أو رفضوه، فانضمّوا إلى الحسين يناصرونه ويظاهرونه.

نجم عن موقفيْ الحسنيْنِ المختلفيْنِ ضربان مختلفان من الخطب السياسية: ضربٌ مسالم يدعو الشيعة إلى مهادنة الأمويين، وضربٌ مقاوم يدعوهم إلى الثورة بهم. فما طبيعة كل ضرب، وما سماته؟ ومن أشهر الخطباء الذين شاركوا في كل ضرب؟

#### أ) خطب المسالمة

ربَّما كان هذا الضربُ من الخطب أقصرَ الضربيْن عُمْراً، وأقلَّهما نصوصاً، وأقربَهما إلى الاتّزان والعقل، وأبعدَهما عن الحماسة والعاطفة. فقد اقترن

بحياة الحَسَن، واصطبغَ بصبغته، فلمّا تُوفي خَفَتَتْ أصداؤه، وبهتتْ أضواؤه، وزهد فيه أكثر المتشيّعين الصادقين، وشارك فيه بعضُ المتملِّقين.

روى الطبري أن معاوية قدم الكوفة سنة إحدى وأربعين، وفيها الحسنُ وعمرو بنُ العاص. أمَّا الحسن فقد دعا معاوية عن طيب نفس ليصالحه ويبايعه. وأمَّا عمرو فقد رمى عن سوء نيّة، وخبث طويّة إلى إحراج الحسن، «فكلّم معاويةَ، وأمره أن يأمر الحسنَ أن يقوم، ويخطب الناس. فكره ذلك معاوية. وقال: أما تريد إليَّ أن أخطب الناس؟ فقال عمرو: أريد أن يبدو عيُّه للناس»، يعني عيَّ الحسن، وكان في لسان الحسن - والقولُ للأصفهانيّ - «ثِقَلٌ كالفأفأة».

لم يَعْيَ الحسنُ بما نُدب له، ولم يَعْرُه خطلٌ أو زلل فيما ارتجل، بل أدلَّ على معاوية وعمرو بالنبوة التي كشفت الضلال عن العرب، وبالتنازل عن الخلافة لقمع الفتنة، ومَنَّ على الأمويين بما منحهم من دنيا زائلة، ودولة دائلة، وحذّر معاوية وأنذره. فأُسْقِط في يد معاوية، وحمَّل عَمْراً تبعةَ ما أصابه من خزي، لأنه أُخذ من حيث لا يحتسب. قال الحسن[1]:

«أمَّا بعد، أيُّها الناس، فإن الله قد هدى أوَّلكم بأوَّلنا، وحَقَن دماءَكم بآخرنا، وكانت لي في رقابكم بيعةٌ، تُحاربون مَنْ حاربتُ، وتسالمون مَنْ سالمت، وقد سالمت معاويةَ، وبايعتُه، فبايعوه. وإن لهذا الأمر مدةً، والدنيا دُوَلٌ. وإن الله قال لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١١١]، وأشار إلى معاوية. فلمَّا قالها قال معاوية: اجلس. فلم يزل ضَرِماً على عمرو، وقال: هذا من رأيك».

يبدو أن معاوية لم يتَّعِظْ بما سمع من الحسن، أو لم يقتنع بما ورد في الخطبة السابقة من صلح وبيعة، فرغب إليه أن يخطب في الناس خطبة أخرى، متوهّماً أن لقب الخلافة الذي يتحصَّن به سيكفُّ عنه لسان الحسن، أو سيحمله على الموادعة والمصانعة إن لم يحمْله على الإطراء والثناء. وربما كانت الخطبة اللاحقة رواية أخرى للخطبة السابقة، لكنها جاءت أوسعَ وأجمعَ، وأدلَّ على شجاعة الحسن وثقته بحقّه في الخلافة، وعلى حلم معاوية وتغاضيه عمّا يُنقد به على سبيل التلميح أو التصريح في سبيل الظفر بالخلافة خالصة له ولبني أمية.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٨٤ (ح) عن مروج الذهب.

جاء في جمهرة خطب العرب[١]: «رَوَى المدائني، قال: سأل معاويةُ الحسنَ بن علي، ﷺ بعد الصلح أن يخطب الناس، فامتنع، فناشده أن يفعل، فَوُضِع له كرسيٌّ فجلس عليه، ثم قال:

«الحمدُ لله الذي توحَّد في ملكه، وتفرَّد في ربوبيَّته. يُؤْتي الملكَ مَنْ يشاء، وينزعه ممَّن يشاء. والحمدُ لله، أكرمَ بنا مؤمنكم، وأخرجَ من الشرك أولكم، وحقَنَ دماءَ آخركم. فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسنُ البلاء، إن شكرتم أو كفرتم.

أيُّها الناس، إن ربَّ عليٍّ كان أعلم بعليٍّ حين قبضَه إليه. ولقد اختصَّه بفضل لم تَعْتَدُّوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته، فهيهات هيهات!! طالما قلبتم له الأمور حتى أَعْلاه الله عليكم، وهو صاحبُكم وعدوُّكم في بدر وأخواتها، جَرَّعكم رَنَقاً، وسقاكم عَلَقاً، وأذلَّ رقابكم، وأشرقكم بريقكم. فلستم بملومين على بُغْضه. وايمُ الله لا ترى أمَّةُ محمد خفضاً ما كانت سادتُهم وقادتُهم بني أمية. ولقد وجه الله إليكم فتنةً، لن تصدروا عنها حتى تهلِكوا، لطاعتكم طواغيتَكُمْ، وانضوائكم إلى شياطينكم. فعند الله أحتسبُ ما مضى، وما يُنْتَظر من سوء دعتكم، وحَيْف حكمكم. ثم قال:

يا أهلَ الكوفة، لقد فارقكم بالأمس سهمٌ من مرامي الله، صائبٌ على أعداءِ الله، نَكَالٌ على فُجَّار قريش، لم يزل آخذاً بحناجرها، جاثماً على أنفاسها، ليس بالملومة في أمر الله، ولا بالسروقة لمال الله، ولا بالفروقة في حَرْب أعداء الله. أعطى الكتاب خواتمَه وعزائمَه، دعاه فأجابه، وقادَه فاتَّبعه، لا تأخذُه في الله لومةُ لائم. فصلواتُ الله عليه ورحمته».

لا يذهبنّ بك الظنّ إلى أن الحسن ﷺ صالح معاوية وبايعه لضعف وخوف، أو لمداهنة ومصانعة، فهو صاحب حقّ، وصاحب الحقّ لا يصانع ولا يداهن. وإنما صالحه ليجنّب المسلمين ما وقع في الجمل وصفين من تقطيع الأيدي وإراقة الدماء في سبيل الظفر بالدنيا تحت راية الدين.

ولا يذهبَّن بك الظنُّ كذلك إلى مثل ما ذهب إليه ظنُّ عمرو بن العاص، حينما خُيِّلَ إليه أنه بحمله الحَسَن على الخطابة يفضحُ على الملأ عيَّه في الكلام

(١) ٢/ ١٢، وانظر الوثائق السياسية/ ٨٣.

وفهاهتَه في السياسية. لقد ارتدَّ مكرُه إليه وإلى صاحبه وهما من أدهى دهاة العرب، فسمعا من الخطبة الأولى ما أخزاهما، وها هو ذا معاوية يظنُّ ما ظنه عمرو، فيرتدُّ سهمه إليه، ويقرُّ - وهو الرزينُ الحليم - إقرارَ النادم بأنه سقط في حفرة حفرها بيده، إذْ قال بعدما فرغ الحسن من الخطبة: «أخطأ عَجِلٌ أو كاد، وأصاب مُتثبِّتٌ أو كاد. ماذا أردت من خطبة الحسن؟» فما الذي حمل معاوية على قول ما قال تعقيباً على خطبة الحسن الثانية؟

تضمَّنت خطبة الحسن الثانية من التجريح الصريح، ومن التقريع المغلَّف بالتعريض وَخَزاتٍ وطَعَنات، لا يمكن أن يتلقَّاها بالصفح والتسامح، أو يتغمَّدها بالحلم والتغافل إلَّا مَنْ أُوتي صدراً واسعاً كصدر معاوية. ففي كلِّ عبارة من كلام الحسن رفعٌ لعليٍّ وخفضٌ لمعاوية، أو إطراءٌ لبني هاشم وإزراءٌ ببني أمية، ولو لم يكن في النصّ اسمٌ صريحٌ، أو ضميرٌ يُكنى به عن أحد الطرفين.

في تعظيم الله مالكِ المُلْكِ وأحكم الحاكمين تحقيرٌ لملوك البشر وتعريض بمعاوية. وفي الاحتجاج بالآية التي تشير إلى نزع المُلك تحذيرٌ لمعاوية من سوء العاقبة. وذكرُ النبوة وما اضطلع به الهاشميون من هداية الناس انتقاصٌ لبني أمية الذين لم يكونوا من السابقين إلى الإسلام. والحديثُ عمَّا في موت عليٍّ من حكمة دفعٌ للشماتة. وفي مناقب عليٍّ وقومه تعريضٌ بمثالب خصومه. وفي الإشارة إلى غزوة بدر وما سبقها وما لحقها من معارك قبل إيمان أبي سفيان في فتح مكة ما يؤخّر الأمويين عن الهاشميين. والتنويهُ بإخلاص عليّ هو عند التحقيق اتهامٌ لمن ناوأه بالانتهاز والنفعية. وأوضحُ من ذلك كلِّه وأصرح قول الحسن: إن خضوعَ الناس لحكَّام السوء حَرَمهم الرخاء، وجرَّ عليهم البلاء، وهو يريد الحكام الأمويين.

وزبدةُ القول أن خطبة الحسن - رضي الله عنه - انطوتْ على أكثر ما يُحبُّ أهلُ البيت أن يدافعوا به عن حقِّهم في الخلافة، وعلى أكثر ما يكرهُ الأمويُّون أن يسمعوه ممَّن ينازعُهم عروة الحكم بلغة راقية مهذبة، وأسلوب خطابيّ، متدفّق الجمل، قصير العبارات، متوازنِ النبرات، يُحْسن الانتقالَ بين الأضداد، ويُجنّد التطابق والمقابلة لتوليد المعاني ببيان مشرق، وحُجَج دامغة، يُظاهرها الكتاب والسنة، وتؤيدها أحداثُ التاريخ، وحقائقُ الشريعة، وتباركُها مشاعر المسلمين، وحبُّهم أهل البيت، أيّاً كان لونهم وانتماؤهم القومي أو القبلي.

إن خطبةَ الحسن الصادرة عن زهده في الدنيا وتعلُّقه بالآخرة، وعن إيثاره سلامةَ أصحابه على التفرُّد بالحكم لم تُرْضِ كلَّ أشياعه، بل ظهر فيهم مَنْ يجأرُ بالمعارضة، ويتَّهم الحسن بأنه أذلَّ أنصاره بتخلِّيه عن الحكم لمن لا يصلح له.

من أبرز الذين عارضوا الحَسَن، واستنكروا خطبته المُسالمة سليمانُ بن صرد السلوليّ الخزاعي [ت: ٦٥هـ] وكان سيِّدَ أهلِ العراق في زمانه. خَطَب خطبة أنكر فيها على الحسن فعلَه وقولَه، ودعاه إلى نقض ما صالح عليه وبايع، واستأذنه في السير إلى الكوفة ليطرد عامل معاوية، ويعلن فيها البيعة لأهل البيت.

وممَّا ورد في خطبة سليمان بن صرد[١]: «أمَّا بعدُ فإن تعجُّبَنا لا ينقضي من بيعتك معاويةَ، ومعك مئة ألف مُقاتل من أهل العراق، وكلُّهم يأخذُ العطاءَ، مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز... فأَعِد الحرب جَذَعةً، وأْذَنْ لي أشخصْ إلى الكوفة، فأخرج عامله منها، وأظهر فيها خلعه، وانبذ إليه على سواء. إن الله لا يهدي كيد الخائنين».

إن خطبة ابن صرد بين يدي الحسن تذكّرك ما قال كعبُ بن زهير لأبيه لما أغار الحارث بن ورقاء على إبل زهير، وذهب بها وبراعيها، فجعل زهير يهجوه ويسبُّ قومه بني أسد، وهم لا يكترثون به، فقال كعب لأبيه: «أوسعتهم سبّاً، وأَوْدَوْا بالإبل».

ولك أن تقول: أخطأ سليمانُ، وأصاب الحسن، كأنَّه كان يرى بعيني البصيرة ما خفيَ عن بصر سليمان. كان يرى أن حميَّةَ ابن صرد قولٌ بلا فعل، وأن مئة الألف في العدد صِفرٌ عند اللقاء. وأدلُّ ما يدلُّك على ذلك أن سليمان هذا كان ممَّن كاتبوا الحسين بن عليّ فيما بعد، وتخلَّف عنه، وخرج بعد ذلك يطالبُ بدمه، ويترأس التوَّابين. فكيفَ يعتمد الحسنُ عليه وعلى أمثاله، وهو يرى منه ما لا يرى من نفسه؟

لم يستطع سليمان بن صرد وأمثاله من الداعين إلى قتال معاوية أن يثنوا الحسن عن سياسته المسالمة لأمور:

- أولُها ما ذكرنا من زهده في الإمارة.

---

(١) الوثائق السياسية/ ٨٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ١٥-١٦.

- والثاني اعتقادُه الجازم أن لدى معاوية من التعلُّق بالخلافة أضعافَ ما لديه من الإعراض عنها.
- والثالث أنّ عليّاً - كما ذكر الحسن - توسَّم في معاوية العزمَ على الظفر بالحكم، وأنه بالغٌ ما طلب ولو حاربه الحسن بجيوش أضخم من جبال الأرض، وسيوف ورماح أكثر من أغصان الشجر.
- والرابع أن دم المسلمين أغلى من أن يُراق في سبيل الظفر بالإمارة.

تجلّى ذلك كله في خطبة ردّ بها الحسن على سليمان، جاء فيها[١]:

«أما بعد... فلو كنتُ بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا أعملُ وأنصَبُ ما كان معاوية بأبأسَ مني وأشدَّ شكيمة، ولكان رأيي غيرَ ما رأيتم. لكني أُشْهِدُ الله وإيّاكم أني لم أرد بما رأيتم إلّا حقنَ دمائكم، وإصلاحَ ذات بينكم. فاتقوا الله، وارضوا بقضاء الله، وسلموا الأمر لله، والزموا بيوتكم، وكُفُّوا أيديكم، حتى يستريحَ برٌّ، أو يُسْتراحَ من فاجر، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيلي الأمر. فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككتُ أنه سيظهرُ. إن الله لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه».

مثَّلت خطبُ المسالمة مرحلةً عابرة من تاريخ الشيعة انطوتْ بوفاة الحسن بن عليّ رضي الله عنهما. وهي - على ما فيها من موقف إنساني يحرِّم إراقة الدماء، ونزعة مثالية تُؤْثِر القِيَمَ على المصالح، ونظرةٍ موادِعَةٍ تحقن دماءَ المسلمين - لم تعش إلَّا سنوات، ثم خبا أوارها أمام التيار المقاوِم الداعي إلى مناصرة أهل البيت واسترداد حقّهم بالقول والفعل لا بالقول وحده.

وبين حين وحين كان هذا التيارُ المسالم يستيقظُ، ويجد من يُعبِّر عنه بلسان التقيَّة مرَّةً، وبلسان الممالأة أخرى، لكنه لم يَقْوَ على مغالبة التيار المقاوم. ومن أبرز الخطباء الشيعة الذين سالموا الأمويين الكميت بن زيد.

قال ابن عبد ربه[٢]: «كان الكميت بن زيد الأسدي يمدحُ بني هاشم ويعرِّض ببني أمية، فطلبه هشام، فهرب منه عشرين سنةً، لا يستقرُّ به القرارُ منْ خوف هشام. وكان مَسْلَمةُ بنُ عبد الملك له على هشام حاجة في كلّ يوم،

(١) الوثائق السياسية/ ٨٦، وجمهرة خطب العرب ٢/ ١٥ - ١٦.
(٢) العقد الفريد ٢/ ١٨٣ وما بعد.

يقضيها له، ولا يردُّه فيها. فلمَّا خرج مسلمة يوماً إلى بعض صُيوده أتى الناسُ يسلّمون عليه، وأتاه الكميتُ بن زيد فيمن أتى... فذكر له سُخْط أمير المؤمنين عليه، فضمنَ له مسلمةُ أمانَه».

كان قلبُ الكميت، كما يفهم من الخبر السابق، مع أهل البيت، غير أن هيبة هشام ألقت في هذا القلب من الروع ما ألقتْ هيبةُ النعمان في قلب النابغة، وفصلت لسانه عن قلبه. ولهذا أقام على رعب، يرتقبُ سانحةً يخطب فيها معتذراً لهشام، وشفيعاً لا تُرَدُّ شفاعتُه، يشفعُ له عنده، فكان الشفيع مسلمة. ونصُّ الخطبة ينمُّ على أن الخطيب أعدَّ خطبته إعداداً مُتقناً، يليقُ بمقام الخليفة وضخامة الذنب، لعلَّه يغسل أوضار الأوزار بالاعتذار، ولو اضطره الأمرُ إلى التزلُّف وإراقة ماءِ الوجه، وإلى أن يُدير لسانَه بعنان الفَزَع والطمع، فيمدحُ مَنْ يكره.

بعد أن أدخل مسلمةُ الكميت مجلس هشام، وضمن له الأمان، خطب الكميت خطبة من شطرين: أولهما في الإقرار والاعتذار، وثانيهما في المدح والتزلّف. ممّا قال في الشطر الأول:

«يا أمير المؤمنين، تِهْتُ في حَيْرة، وحِرْتُ في سكرة، ادلأَمَّ بي خَطَرُها، وأهابَ بي داعيها، وأجابني غاويها، فاقْطَوْطَيْتُ إلى الضلالة، وتسكَّعتُ في الظلمة والجهالة، جائراً عن الحقِّ، قائلاً بغير صدق، فهذا مَقَامُ العائذ، ومنطقُ التائب، ومبصرُ الهدى بعد طول العمى. يا أمير المؤمنين، كم من عاثرٍ أَقَلْتُم عَثْرَته، ومُجْتَرِمٍ عَفَوْتُم عن جُرْمه».

إذا كان المقصودُ بما ورد في هذا الشطر من حَيْرة وسَكْرة، وضلالة وجهالة، وعثرة وجُرْم ما سبق من تعريض الكميت بالأمويين، فأنت قد تغتفرُ ذنبه، وتقبلُ عذره، وتحمله على الرجوع عن الهمز واللمز، والذمّ والشتم. أمَّا إذا كان المقصود بهذه الألفاظ الزئبقية وبما تبعها من ذكر للظلمة والجور والقول بغير الحق ما مدح به الشاعر أهلَ البيت في هاشمياته، فاعتذارُه غَدْرٌ، ورجوعُه عنه عمىً لا هُدى، وذنبُه فيه أقبح من ذنبه في هجو الأمويين، وهو في الحالين مدين لا بريء.

وقبل أن نضع بين يديك الشطر الثاني من خطبة الكميت نُذكِّرك بما ذكرنا في الجزء السادس من هذه السلسلة، إذْ قلنا: هجا الكميتُ الأمويين، فجعلهم كرعيان

الأنعام، في حكم الشعب، وخصَّ بالهجو كبار الخلفاء ومنهم هشام إذْ قال:

**ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواءً ورِعيةَ الأنعامِ**
**لا كعبد المليك، أو كوليدٍ أو سليمان بعدُ، أو كهشام**

وهذا الهجو كان قد بلغ هشاماً، فكيف تلقَّى خطبته؟

السياسيُّ المحنَّكُ لا يأبه للماضي إذا نسخه الحاضر، ولا يُوجعه الهَجْوُ القديم إذا دغدغه مدحٌ جديد، بل يشتري لساناً بجائزة، وينتزع من أعدائه قلعةً كانوا يتحصَّنون بها، ويرمونه من وراء أسوارها، إنه يعفو ليربح. ولهذا قال هشام للكميت بعدما سمع الشطر الأوَّل من خطبته: «وَيْحك! مَنْ سَنَّ لك الغواية، وأهابَ بكَ في العماية؟ قال: الذي أخرج أبي آدمَ من الجنة، فنسيَ ولم يجد له عَزْما».

إن سؤال هشام فتح أمام الكميت بابَ التوبة، فنفح الخليفةَ بالشطر الثاني من الخُطْبة، فإذا هي قصيدة مدح بلا وزن، تأنَّق فيها الكميت ونمَّق، وحشر من الصور أكثر ممَّا كان يحشر في قصائده الهاشميات، إذْ قال:

«أميرُ المؤمنين كريحِ رحمةٍ، أثارتْ سحاباً متفرِّقاً، فلفَقَتْ بعضَه إلى بعض، حتى التحم، فاستحكم هَدْرُ رَعْدِه، وتلؤلؤُ بَرْقِهِ، فنزلَ الأرض، فرويتْ، واخضلَّتْ واخضرَّتْ، وأُسقيت، فرويَ ظمآنُها وامتلأَ عطشانها. فكذلك نعدُّك أنت يا أميرَ المؤمنين. أضاءَ الله بك الظلمةَ الداجية بعد العُموس فيها، وحقَنَ بك دماء قوم، أشعر خوفُك قلوبَهم، فهم يبكون لما يعلمون من حَزْمك وبصيرتك.

لقد علموا أنك الحربُ وابن الحرب، إذا احمرَّت الحدَق، وعضَّت المغافيرُ بالهام، عزَّ بأسك، واستربط جأشُك، مِسعارٌ هتَّانٌ وكَّافٌ، بصيرٌ بالأعداء، مُغري الخيل بالنكراء، مُسْتغنٍ برأيه عن رأيِ ذوي الألْباب برأيٍ أريبٍ، وحلمٍ مُصيبٍ، فأطالَ الله لأمير المؤمنين البقاء، وتمَّمَ عليه النعماء، ودفع به الأعداء». قال الراوي: فرضي عنه هشام، وأمر له بجائزة.

ولعلَّك لاحظت أن الكميت لم يضمِّنْ خطبته رأياً واحداً من آراء الشيعة السياسية، ولم يدافع عن حقّهم في الخلافة، بل انقلبَ أمويّاً متزلّفاً، ومرتزقاً متكفِّفاً، لا يَعْنيه من الدنيا والآخرة غير التضرُّع لهشام، ليفوزَ بودّه ورفده.

ولا تخطئُ إذا خطَّأْتَ من يسلكُ هذه الخطبةَ في سِلك التيّار المُسالم من خطب الشيعة، لأن صاحبها انقلب على عِترته، وقلب ظهر المجنّ، وآثر أن يُبقيَ رأسَه بين كتفيه على أن يصدعَ بما آمن به.

وإذا كان سليمان بن صرد قد تخلّى عن إمامه الحسن بن علي بن أبي طالب، فإن الكميت تخلَّى كذلك عن إمامه زيد بن علي، وأسلمه إلى الموت. ثم زعم أنه ندم - ولات ساعة مندم - فقال والقول لا يرد روحاً أزهقت[١]:

**دعاني ابنُ الرَّسولِ، فلم أُجِبْهُ ... ألهفي لهفَ للقلب الفَرُوقِ!**
**حِذارَ منيَّةٍ، لا بُدَّ منها ... وهل دونَ المنيةِ من طريقِ؟**

وصدق الكميت، إذْ لم يُنجه الجبنُ من الموت، ومات شرَّ ميتة، فقد قتله لسانُه المتقلّب بين المذاهب والعصبيات، قتله جنودُ يوسفَ بن عمر الثقفي كما ذكرنا في الجزء السادس من هذه السلسلة. إذْ وضعوا ذُباب سيوفهم في بطنه، فَوَجؤوه بها، فلم يزل ينزف حتى مات.

وعلى الرغم ممَّا أخذْتَ على سيرته من تقلُّب ذليل، وعلى سريرته من تقيّة متضرِّعة يبقى الكميت من بلغاء الخطباء في زمانه، آتاه الله من البيان المنثور مثل ما آتاه من الموهبة الشاعرة، فجانس وطابق، ووازن وسجع، وعرض أفكاره المجرَّدة بصور حسية ملونة، لا تجد ما يُضارعها إلّا في خطب زياد والحجّاج.

ب) خطب المقاومة

بعد وفاة الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما أخذتْ خطبُ الشيعة المسالمة تخبو، وتفسحُ الميدان لخطب من ضرب آخر، يصوِّرُ نقمة الشيعة على بني أمية. فلما قُتل الحسين رضي الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية قوي هذا الضرب الجديد، واستلهم من مصرعه الدامي أفكاراً وصوراً ومشاعر متدفِّقة، خَلَعتْ على هذا الضرب من الخطب سمات متوهّجة، ارتقت بفن الخطابة، وأنطقت الخطباء بآراء جريئة، كان يجمجمون بها، ولا يجرؤون على نشرها قبل مصرع الحسين.

(١) د/ ٦٣٠.

لقد عملت الأحداثُ المأساوية عَملَها على تحويل خطباء الشيعة من مُتردِّدين إلى مجالدين، ومن متخاذلين إلى مقاتلين، ومن مذنبين إلى توَّابين. ومنهم سليمان بن صرد [ت: ٦٥هـ] الذي خبرناك من أخباره خذلانَه الحسينَ بنَ عليّ، وانكفاءَه عن القتال إلى جانبه، وندمَه بعد ذلك، وسعيه بعد الندم إلى التكفير عمَّا اجترم بالقول والفعل، لا بالقول وحده. جاء في الوثائق السياسية[١]:

«خرج جماعة من الشيعة من الكوفة خاصَّة، سمّوا أنفسهم «التوَّابين» لأنهم تابوا إلى الله عن ذنبهم العظيم الذي تمثل في تخلّيهم عن نصرة الحسين بن علي. وقد بدأت دعوتهم في أوائل خلافة معاوية الثاني، واستمرت حتى أوائل عهد عبد الملك بن مروان». وانتخب التوابون سليمان بن صرد الخزاعي، وأمَّرُوه عليهم في مقاومتهم بني أمية. وبعد انتخابه خطبَ فيهم خطبة ناقمة تُمثّل أفكارَ هذا الضرب من الخُطب، وأهدافه، وتؤرِّخ التطوُّر الذي أنجزه رؤساء الشيعة في مقاومة الأمويين، وتتجلى فيها سمات فكرية وعاطفية تسم خطب المقاومة، وتميزها من الخطب المسالمة:

السمةُ الأولى أن الخطيبَ يتناسى حقَّ الهاشميين في الخلافة، ويُغْفل الأدلَّةَ التي تفنِّدُ حقَّ الأمويّين فيها، إمّا لأنَّ هذه الأدلة أصبحتْ أوضحَ من أن تُذْكر، وإمَّا لأنَّ الأحداثَ الدامية فرَضَتْ نفسها على الألسنة، وجعلت الواقعَ العمليَّ أهمَّ من الأفكار النظرية.

والسمةُ الثانية طغيانُ الحزن والألم والتشاؤم، كأنَّ الخطباء وجدوا في النَّزْع عن هذه القوس تعبيراً صادقاً عمّا آل إليه حزبُهم من الإحساس باليأس.

وثالثةُ السمات الشكوى من ظلم الأمويين، والنقمةُ على حكمهم، واتهامُهم بالفجور والفسوق والإجرام.

ورابعةُ السمات الاستماتةُ في قتال الأمويين، لا لانتزاع الخلافة منهم، وحسبُ. وإنما لتطهير النفوس الآثمة بالتضحية المصمِّمة على الاستشهاد في سبيل المبدأ أولاً، ولتطهيرها من الذنب ثانياً. والذنبُ الذي تحرص على التطهُّرِ

(١) ص ٢٢٤-٢٢٥.

من أدرانه هو خذلانُ الحسين ﷺ، وتركه يَلْقى مصرعه، وهو سِبطُ رسول الله ﷺ، وخيرُ ولده من بعده، وفلذةُ كبده، وبضعة من لحمه ودمه. وإليك نصَّ الخطبة:

أثني على الله خيراً، وأحمد آلاءه وبلاءَه، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله.

أمّا بعدُ، فإني والله لخائفٌ ألّا يكون أخَّرنا إلى هذا الدهر الذي تكدرت فيه المعيشةُ، وعظمت فيه الرزيَّةُ، وشمل فيه الجورُ أولي الفضل من هذه الشيعة لما هو خير.

إنا كنا نمدُّ أعناقَنا لقدوم آل نبيِّنا، ونُمنِّيهم النصرَ، ونحثُّهم على القدوم. فلمَّا قدموا وَنِينا[١]، وعجزنا، وأَدْهَنَّا[٢] وتربَّصنا، وانتظرنا ما يكون، حتى قتل فينا ولَدَيْنا ولدُ نبينا، وسلالتهُ وعصارته، وبضعةٌ من لحمه ودمه، إذْ جعل يستصرخ، ويسأل النَّصَفَ[٣]، فلا يُعطاه. اتخذه الفاسقون غَرَضاً[٤] للنبل، ودريَّة[٥]للرماح حتى أقصدوه[٦]، وعَدَوْا عليه فسلبوه.

أَلَا انهضوا، فقد سخط ربُّكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنُّه راضياً دون أن تناجزوا من قَتَله، أو تَبيروا[٧]. ألا لا تهابوا الموت، فوالله ما هابه امرؤٌ قطُّ إلا ذلَّ. كونوا كالأُلى من بني إسرائيل إذْ قال لهم نبيُّهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٤] فما فعل القوم؟ جَثَوْا على الركب، والله، ومدُّوا الأعناق، ورَضُوا بالقضاء، حتى حين علموا أنه لا يُنجيهم من عظيم الذنب إلَّا الصبرُ على القتل. فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثلِ ما دُعي القوم إليه؟

---

(١) ضعفنا وقصّرنا.
(٢) أظهرنا خلاف ما نضمر ونافقنا.
(٣) الحق والعدل.
(٤) الهدف.
(٥) دريئة: ما يتعلم الرامي عليه الطعن والرمي.
(٦) رموه فأصابوا منه مقتلاً.
(٧) تهلكوا.

اشحذوا السيوفَ، وركّبوا الأسنة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠] حتى تدعوا حين تدعون وتستنفرون».

من قراءة الخطب التي عَقَّب بها نفر ممّن سمعوا سليمان بن صرد يبدو أن رؤوس الشيعة وافقوا على أكثر ما جاء في خطبته، وخالفوه من دعوته إلى التكفير عن التقصير بالانتحار، ورَأوْا أنه لا مسوِّغ لعقوبة تسرُّ العدوَّ، وتسوءُ الصديق. وإعدادُ القوة أَوْلى من تبديدها. جاء في جمهرة خطب العرب[١]:

«فقام خالدُ بن سَعْد بن نُفَيْل، فقال: أمّا أنا فوالله لو أعلمُ أن قتلي نفسي يُخْرِجني من ذنبي، ويُرْضي عني ربي لقتلتُها، ولكنْ هذا أُمِرَ به قومٌ كانوا قبلنا، ونُهينا عنه. فأُشْهِدُ الله ومن حضر من المسلمين أن كلّ ما أصبحتُ أملكه سوى سلاحي الذي أقاتلُ به عدوّي صدقةٌ على المسلمين، أقوّيهم به على قتال القاسطين[٢]».

«وقام أبو المعتمر حَنَشُ بنُ ربيعة الكِناني، فقال: وأنا أُشهدكم على مثل ذلك. فقال سليمان بن صُرَد: حَسْبُكُم، مَنْ أراد من هذا شيئاً، فليأت بماله عبدَ الله بنَ والِ التَّيَمي تيم بكر بن وائل، فإذا اجتمع عنده كلُّ ما تريدون إخراجَه من أموالكم جهَّزْنا به ذوي الخَلَّة[٣] والمسكنة[٤] من أشياعكم».

ومعَ مرور الزمن، وبعد أن هدأت هيجةُ الشيعة أخذَ خطباؤُها يتعاورون المنابرَ، ويتحاورون في العوامل التي صَنَعتْ فاجعةَ الحسين المروِّعة، ويحتكمون إلى العقل بعد أن طال احتكامُهم إلى العاطفة، فإذا هم يُضَمِّنون خُطبَهم أفكاراً ومناهجَ متكاملة، تُرْسي مقاومتهم على أُسس دينية، مستمدّة من كتاب الله، وترسم لعامَّة الناس سُبُلَ الكفاح، وتُبَصِّرهم بالغاية التي ندبوا أنفسهم لبلوغها، فأخذوا منذ مقتل الحسين رضي الله عنه سنة إحدى وستين يجدّون في جمع آلة الحرب في الكوفة، ويستعدّون للقتال، ويدعون الناس في السرّ، حتى كثر أتباعهم، ولاسيّما بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين.

---

(١) ٢/ ٦١.

(٢) الظالمين.

(٣) الحاجة والفقر.

(٤) قلة المال وسوء الحال والمسكين أصلح حالاً من الفقير.

من أبرز الخطباء الشيعة في هذه الحقبة التأسيسية الخطيرة عبيدُ الله بن عبد الله المرّيّ الذي خطب الناس، فجعل خطبته ستة أقسام، تتضمَّن ستة عناصر فكرية وعملية:

- أولُها تعظيم النبي ﷺ والتنويهُ بفضل من اتبعوه، وعلى رأسهم الهاشميون وأهلُ بيته. والتنويهُ بالهاشميين يعني بالضرورة تسفيهَ الأمويين.
- وثانيها الدفاعُ عن حقِّ الهاشميين في الخلافة، لأنهم ورثة النبيّ ﷺ. وفضلُهم على الناس كفضل النبيِّ على الأنبياء، فكيف يطاولُهم بنو أمية؟ وكيف يُوَلَّى المرجوح ويُعْزل الراجح؟
- وثالثها تصويرُ المشاهد المروعة التي اكتنفت مصرع الحسين، رضي الله عنه، بأسلوب يستثيرُ العواطف، ويستدرُّ الدموع، ويشحن النفوس غضباً على من مثّلوا به، وفجعوا به المسلمين عامّةً، وأهل البيت خاصَّة.
- ورابعُها الإشادة بمناقب الحسين وأبيه، وكأنّ المقصودَ بهذه الإشادة تحقيرُ من قتلوهما، والسخر ممَّنْ نصبوا أنفسَهم أئمة، وليس فيهم مَنْقَبةٌ واحدة من مناقب الحسين وأبيه.
- وخامسُها الدعاءُ بالويل والثبور على قَتَلة الحسين، واستتابةُ من ظاهروه بالقول، وتنكّروا له بالفعل، لعلّ التوبةَ تمسح الحَوْبة، فيغفر الله لمن خذل، ويتقبَّل بَذْل مَنْ بَذل.
- وسادسُها أهمُّ الأقسام والخاتمة التي إليها سيقت الخطبةُ من بدايتها، والغرضُ الذي يسعى الشيعة إلى تحقيقه. وفي هذا القسم يدعو الخطيب إلى حمل السلاح ومقاتلة الأمويين، إمّا لنيل الشهادة المُفضية إلى الجنة، وإمّا للظفر بالنصر، وانتزاع الحكم من الغاصب، والعودة به إلى صاحب الحقّ. وإليك نصَّ الخطبة مُوزَّعاً على ستة الأقسام التي أشرنا إليها[1]:

«أمَّا بعدُ، فإنّ الله اصطفى محمّداً ﷺ على خلقه بنبوّتهِ، وخصَّه بالفضل كلِّه، وأعزَّكم باتِّباعه، وأكرمكم بالإيمان به، فحَقَن به دماءَكم المسفوكة، وآمن به سُبُلكَم المَخُوفةَ ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

(١) الوثائق السياسية/ ٢٢٥.

فهل خلق ربّكم في الأوّلين والآخِرين أعظمَ حقّاً على هذه الأمة من نبيِّها؟ وهل ذريةُ أحدٍ من النبيِّين والمُرْسلين أو غيرهم أعظم حقّاً على هذه الأمة من ذريَّةِ رسولِها؟ لا، والله، ما كان ولا يكون.

لله أنتم! ألم تَرَوْا ويبلغكم ما اجْتُرِمَ[١] إلى ابن بنت نبيّكم؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمتَه، واستضعافِهم وحْدَتَه، وترميلهم[٢] إيَّاه بالدم، وتَجْرارِهموهُ على الأرض؟ لم يراقبوا فيه ربَّهم ولا قرابته من الرسول ﷺ. اتَّخذوه للنبل غَرَضاً[٣]، وغادروه[٤] للضباع جَزَراً.

فَلِلَّه عينا مَنْ رأى مثلَه! ولله حسينُ بنُ عليّ! ماذا غادروا به؟ ذا صدق وصبر، وذا أمانة ونجدة وحزم، ابنُ أوَّل المسلمين إسلاماً، وابنُ بنتِ رسولِ ربّ العالمين.

قلّت حُماتُه، وكثرتْ عِداته حوله، فقتله عدوُّه، وخذله وليُّه. فويلٌ للقاتل، وملامةٌ للخاذل. إن الله لم يجعل لقاتله حُجَّةً، ولا لخاذله معذرةً، إلا أن يناصحَ لله في التوبة، فيجاهدَ القاتلين، ويُنابذَ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبلَ التوبة، ويُقيل العَثْرَة[٥].

إنَّنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيِّه، والطَّلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين، فإن قُتِلْنا فما عند الله خيرٌ للأبرار، وإن ظَهَرْنا رَدَدْنا هذا الأمرَ إلى أهل بيْتِ نبيِّنا».

مَنْ ينظرْ في خطب الشيعة نظرةً ناقدة يقعْ على مجموعة من السمات الفكرية والفنية، تلتقي في بعضها خطب الشيعة بخطب الأمويين، وتتفرَّد ببعضها خطبُ الشيعة تفرُّداً ناجماً عمّا تمثّله من معارضة ومقاومة، أو عمَّا تعبِّرُ عنه من حُجَج، لا تمتلكُ الخطبُ الأموية ما يُضارعها:

**أُولى هذه السمات** استلهامُ المعاني والأدلة والحجج من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والسيرة النبوية، ومن مناقب الأسرة الهاشمية، وممَّا يحفل

(١) ما اقتُرف بحقه من ذنب وتعدٍّ.
(٢) تلطيخهم.
(٣) هدفاً.
(٤) تركوا جسده قطعاً تنهشها الضباع.
(٥) يقيل العثرة: يصفح.

به تاريخُها من السَّبْق إلى الإيمان بالإسلام والاضطلاع بالدعوة إليه. وخطباءُ الشيعة برعوا في الإفادة من هذه المصادر الفكرية والتاريخية، وفي تطويع كنوزها وأحداثها لتفضيل الهاشميّين على الأمويِّين، والدفاع عن حقِّهم في الخلافة ببراهين دامغة لا تقعُ على ما يضارعُها في خطب الحزب الأموي.

**وثانيةُ السمات** تنسيقُ الأفكار، وسَلْكُها في سلك منطقيٍّ، مترابط العرض، مُحْكم الأداء، تؤدِّي بدايتهُ إلى نهاية مرسومة. وترابطُه ينجم إمّا عن تعاقب الوقائع التاريخية المعروضة التي يُحسن خطباء الشيعة تسخيرها لدعوتهم، وإمّا عن براعة الخطيب في التمهيد والعرض والاستنباط، على النحو الذي تجلّى في الخطبة السابقة.

**وثالثةُ السمات** الصدقُ والحرارةُ والتدفُّق العاطفيُّ، وسرُّ هذا الثراء النفسي إيمانُ الخطباء بما يقولون، وإحساسُهم المؤرِّق بأنهم أذنبوا وتابوا، وبأنهم يكفّرون عن خطايا يحملون أوزارها، وندمُهم على ما فرَّطوا في جنب الله، وفي حقِّ الأسرة الشريفة. ولا يخلو من هذا الثراء العاطفي إلّا خطبُ المتشيِّعين المتزلّفين لبني أمية.

**ورابعةُ السمات** الأسلوبُ الخطابيُّ الإنشائي الحافلُ بالنداء والأمر والنهي والاستفهام. وهذا الأسلوب بثَّ في خطب الشيعة حيويةً قادرة على تحريك المشاعر وتوجيهها.

**والسمةُ الخامسة** الاستعانةُ بالتصوير لإبراز الأفكار المجرَّدة بألواح متحرّكة ملونة، وتقطيع الجمل وتوقيعُها على نغمات الجناس والسجع. لكنَّ خطب الشيعة في هذه السمة لا تبلغُ ما بلغته خطب الفحول من أمراء بني أمية وولاتهم كالحجاج وزياد.

### ٣) خطب الخوارج

بعد رفع المصاحف في صِفّين، وتحكيم أبي موسى الأشعريّ، وعمرو بن العاص في اختلاف عليّ ومعاوية خرجت خارجة من جيش علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، تنكر تحكيم البشر، وتقول: لا حكم إلّا لله.

والكثرةُ الكاثرةُ من هذه الفئة مقاتلون أشدَّاء، ومؤمنون متزمِّتون، وأصحابُ عقيدة سياسية لا تقبلُ المحاورة، وخطباء بلغاء، فيهم من اللَّسَن والفصاحة مثلُ ما فيهم من الإخلاص للمبدأ والشجاعة. من أشهرهم: عبد الله بنُ

وهب الراسبيّ، والمستوردُ بنُ علَّفة التيميّ، وصالحُ بن مُسَرَّح التميمي، وعبدُ الله بن يحيى الخارجي - ولقبه طالبُ الحق - وأبو حمزة الشاري الأزديّ، واسمه المختار بن عوف.

أمَّا عبدُ الله بن وَهْب الراسبيّ الأزديّ فقد كان مجتهداً في العبادة، ذا علم ورأي وفصاحة وشجاعة، أمَّره الخوارجُ عليهم في النَّهْروان، فقاتل بهم عليّاً، وقُتِل سنة ٣٨هـ. غير أنه، على إجادته الخطابة، ينتمي إلى عصر الخلفاء الراشدين، ولهذا أغفلنا خطبه.

وأمَّا المستوردُ بن عُلَّفة التيميّ فقد كان من كبار الخوارج الإباضيين، ومن خطبائهم الفصحاء. خرج على عليٍّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، فقاتله الإمامُ حتى ألجأه إلى الهرب والاستتار في الكوفة. وبعد مقتل الإمام سنة ٤٠هـ أسند معاوية إمرة الكوفة إلى المغيرة بن شعبة، فخرج المستورد من مكمنه، وثار بالمغيرة سنة ٤٢هـ، فبايعه أصحابه، وخاطبوه بإمارة المؤمنين. حينئذ وجه إليه المغيرة جيشاً، يقوده معقل بن قيس الرياحي، فقاتله حتى قتله وقتل معه في معركة واحدة سنة ٤٣هـ.

قبل أن يلتقي الجمعان قرب نهر دجلة شاور المستورد أهل الرأي من أصحابه، فأدلوا بآرائهم، والمستورد يصغي، ثم وقف وخطب فيهم خطبة قصيرة تحدث في شطرها الأول عن زهده في الدنيا، وعزوفه عن الفخر، ودعا من معه إلى الجهاد لتحقيق إحدى الحسنيين: الأولى أن يظفروا بشهادة، تنقل الشهيد من الفانية إلى الباقية. والثانية أن ينتصروا على البغاة الطغاة الذين ضلوا وأضلّوا فيفوزوا بالأجر ويزهقوا الباطل.

وفي الشطر الثاني من الخطبة تحدث عن خطته في القتال، فآثر الهجوم على الدفاع ليمنع عدوَّه من الاستعداد، ويحرمه الراحة، ويفوّت عليه التأهب واختيار زمن المعركة ومكانها، فقال[١]:

«أمَّا بعدُ، فإن هذا الخَرِفَ معقلَ بنَ قيس قد وُجِّه إليكم، وهو من السبئية المفترين، وهو لله ولكم عدوٌّ، فأشيروا عليَّ برأيكم. [فأَدْلى الناسُ بآرائهم]، فقال المستورد:

(١) الوثائق السياسية/ ١٠٨.

يا معشر المسلمين، إنّي والله ما خرجتُ ألتمسُ الدنيا، ولا ذكرها ولا فخرَها ولا البقاءَ. وما أحبُّ أنها لي بحذافيرها وأضعاف ما يُتَنافَسُ فيه منها بِقِبال نَعْلي[١]. وما خرجتُ إلَّا لالتماسِ الشهادة، وأنْ يهديني الله إلى الكرامة بهوان أهلِ الضلالة.

إني قد نظرتُ فيما استشرتكُم فيه، فرأيتُ ألَّا أقيمَ لهم حتى يقدموا عليَّ، وهم جامُّون[٢] مُتوافِرون، ولكنْ رأيتُ أن أسيرَ حتى أُمْعِنَ، فإنَّهم إذا بلغهم ذلك خَرجوا إلى طلبنا، فتقطَّعوا وتبدَّدوا، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالُهم. فاخرجُوا بنا على اسمِ الله عزَّ وجلَّ».

إذا أعدت النظر في نصّ الخطبة السابقة لم تجد فيها من فكر الخوارج السياسيّ رأياً يُعتدّ به سوى احتقار الدنيا والاستماتة في محاربة الضلال وأهله. ولك أن تعلل ذلك تعليلاً تاريخياً، خلاصته أن المستورد كان من الرعيل الأول، الذي أخرجه على عليّ التحكيمُ، وعلى معاوية الاستئثار بالخلافة.

وبعد ثلث قرن من مقتل المستورد أخذ التصور السياسي يتكامل في أذهان الخوارج، وراح خطباؤهم ينقدون الأحوال التي حملتهم على الثورة، وبغضت إليهم الحياة، ورغّبتهم في الموت.

من هؤلاء الخطباء صالح بن مُسَرَّح التميمي زعيمُ الخوارج الصفرية في زمان عبد الملك بن مروان. كان صالحٌ هذا ناسكاً مُخْبتاً مصفرَّ الوجه من الزهادة والتقشف، صاحب عبادة، له أصحاب يقرئهم القرآن، ويفقِّههم في الدين. خرج على الحجَّاج في الموصل، وانضمَّ إليه شبيبُ بن يزيد الشيباني. وقُتل سنة ٧٦هـ.

حفظتْ له كتبُ التاريخ والأدب بضعَ خطب، فيها من الدين مثلُ ما فيها من السياسة، لكنها أحفلُ بآراء الخوارج من خطبة المستورد. ومن خطبه السياسية خطبة موزعة على ثلاثة أقسام:

- في قسمها الأول أطرى صالحٌ خلافتيْ أبي بكر وعمر لالتزامهما الكتاب والسنة، وحزمهما وحكمهما بين الناس بالعدل.

---

(١) زمام بين الإصبع والتي تليها وهو الشراك.
(٢) مرتاحون.

- وفي الثاني زعم أن عثمان استأثر بمال الأمة وعطَّل أحكام الشريعة، وأن عليّاً أخطأ حينما حكَّم الرجالَ، والحكمُ لله.
- وفي الثالث دعا أصحابه إلى الجهاد بالأموال والأنفس لقمع الفساد والجور، وحبَّب إليهم الموت في ساحة القتال، فقال بعد أن حمد الله، وصلّى على نبيه، وذكر فضله على الناس في حياته وبعد أن توفاه الله[1]:

«... ثم ولي الأمرَ من بعده التقيُّ الصِّدِّيقُ، على الرضى من المسلمين، فاقتدى بهديه، واستنَّ بسنته، حتى لحق بالله، رحمه الله. واستخلف عمرَ، فولَّاه الله أمرَ هذه الرعية، فعمل بكتاب الله، وأحيا سنة رسولِ الله ﷺ، ولم يُحْنِقْ في الحقّ على جِرَّته، ولم يَخَفْ في الله لومةَ لائم، حتى لحق به، رحمةُ الله عليه.

وَوُلِّيَ من بعده عثمانُ، فاستأثر بالفيء، وعطَّل الحدود، وجار في الحكم، واستذلَّ المؤمنَ، وعزَّر المُحْرِمَ، فسار إليه المسلمون فقتلوه، فبرئَ الله منه ورسولُه وصالح المؤمنين، وولي أمرَ الناس من بعده عليُّ بن أبي طالب، فلم ينشبْ أن حكَّمَ في أمر الله الرجالَ، وشكَّ في أهل الضلال، فركَنَ وأَدْهَن، فنحن من عليٍّ وأشياعه براء.

فَتَيسَّروا رحمكم الله لجهادِ هذه الأحزاب المتحزِّبة، وأَئمةِ الضلال الظَّلَمة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، واللَّحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وأنفقوا أموالَهم التماسَ رضوانِ الله في العاقبة، ولا تجزعوا من القتل في الله، فإنَّ القتلَ أَيْسرُ من الموت، والموتُ نازلٌ بكم، غيرَ ما ترجُمُ الظنونُ، فمفرِّقٌ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم، وإن اشتدَّ لذلك كرهُكُمْ وجَزَعكم. أَلا فبيعوا الله أنفسَكُمْ طائعين وأموالَكُم تدخلوا الجنةَ آمنين».

وفي الفترة التي شهدت خروج صالح بن مسرَّح خرج المطرف بن المغيرة بن شعبة الذي تحدث عنه المؤرخون فقالوا:

كان المطرف ثائراً من أتقياء الولاة والأمراء والقادة الشجعان، أرسله الحجّاج ليحارب شبيبَ بن يزيد الخارجي، فلمَّا تصافَّ الجيشان أرسل

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٤٦٠.

شبيبٌ إلى المطرّف وفداً يدعوه إلى الالتحاق بمذهب الخوارج، فمال المطرف إلى مذهب شبيب، وخيَّر جنوده بين المضيّ معه، والبقاء على مناصرة الأمويين، فبايعه أكثر أصحابه وخرج بهم لمحاربة الأمويين، وظل يقاتل حتى قُتل سنة ٧٧هـ.

إنك لتعجبُ من هؤلاء الرجال الشجعان الأذكياء المتفقِّهين في الدين، كيف يتخلَّوْن عن الإمارة والترف، ثم يلتحقون بشراذم مُضطهدة، وليس لهم مأربٌ سوى الجهاد حتى الموت. لقد عاف المطرِّف - وأبوه المغيرة بن شعبة أحد الولاة الدهاة المشاهير - ولاية المدائن التي تولّاها بأمر الحجاج، ومال إلى مذهب الخوارج.

مما قال في بعض خطبه بعد أن ذكر الله بما هو أهله، وصلى وسلَّم على رسوله[١]:

«أمَّا بعدُ، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال فيما أنزَل إلينا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

وإني أُشهدُ الله أني قد خلعتُ عبد الملك بن مروان، والحجَّاج بن يوسف، فَمَنْ أحبَّ منكم صحبتي وكان على مثل رأيي، فليبايعْني، فإنَّ له الأسوةَ وحسنَ الصحبة. ومَنْ أبى فليذهبْ حيث شاء، فإني لستُ أحِبُّ أن يتَّبعني مَنْ ليست له نيَّةٌ في جهاد أهل الجور.

أدعوكم إلى كتابِ الله وسنةِ نبيِّه، وإلى قتال الظَّلَمة. فإذا جَمَع الله أمرنا كان هذا الأمرُ شورى بين المسلمين، يرتضون لأنفسهم من أحبّوا».

وأعجبُ ما يُعجبك من خطبة المطرِّف خاتمتُها السياسية التي سبقتْ عصرَها. ففي هذه الخاتمة لخَّص الخطيبُ بسطر واحد محورَ الفكر السياسيّ الخارجي، والغايةَ التي يرمي إلى بلوغها كلُّ الزعماء والخطباء الذين قادوا جيوش الخوارج على اختلاف الفرقِ التي توزعتهم، والأسماءِ التي تسمَّت بها هذه الفرق، من حرورية وشُراة وأزارقة وإباضية وصُفْرية وقَعَدٍ. وهي قتالُ

(١) الوثائق السياسية/ ٣٣٧.

المستبدّين المستأثرين بالحكم الوراثي، لا ليخلعوهم ويتولَّوْا الحكم بعدهم، بل ليولُّوا مَنْ يُجْمع المسلمون على توليته بالانتخاب والشورى.

وفي الفترة نفسها، أي في خلافة عبد الملك بن مروان وولاية الحجَّاج بن يوسف ظهر زعيم آخر من قادة الخوارج وخطبائهم الأفذاذ، وهو قطريُّ بن الفجاءة المازنيّ التميمي [ت: ٧٨هـ] قاد الأزارقةَ، واستفحل أمره حتى أعيا كبار القادة، وبقيَ ثلاثَ عشرةَ سنة يقاتل الحجَّاج ويهزم جيوشه، فلا يقوى عليه أحد. قيل في صفته: كان خطيباً مفوَّهاً، وشاعراً مجيداً، وفارساً فذّاً، وطامَّةً كبرى من صواعق الدنيا في القوَّة والشجاعة. ذُكرت له وقائع مدهشة.

روى له الجاحظ وابنُ قتيبة وابن عبد ربه خطبةً عصماء، غير أن ابن أبي الحديد نسبها إلى عليّ بن أبي طالب، فقال: «هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين، ورواها لقطري بن الفجاءة، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام».

ولمَّا كانت من الخطب المختلف في نسبتها فقد أمسكنا عن روايتها ودراستها، واستغنينا بما ذكرنا من خُطب صالح بن مسرَّح والمطرِّف بن المغيرة، وكلاهما من زعماء الخوارج وخطبائهم في عصر قطري بن الفجاءة.

ظلَّ خطباء الخوارج طَوَال نصفِ قرن بعد مصارع صالح والمطرِّف وقطريّ ينزعون في خطبهم عن القوس نفسِها، ويردِّدون فيما يخطبون أفكار الرعيل الأول، ويكرِّرون الآراء الدينية والسياسية التي وقفناك عليها: يتغنَّوْنَ بالزهد وكره الدنيا، ويدعون إلى أحكام الشريعة، ويُنكرون على الأمويين حقَّهم في الخلافة، ويدَّعون أن الله ندبهم لهداية البشر وحملهم على الجادة بعد أن أضلهم حكامهم الظَّلَمة، ويرغّبون أتباعهم في الجهاد، ويحبّبون إليهم الشهادة، حتى كأن غايتهم الموتُ في سبيل الله لا الوصول إلى الحكم.

ومن أبرز خطباء الخوارج أواخرَ العصر الأموي عبدُ الله بن يحيى، وأبو حمزة الشاري. كان الأول إماماً إباضيّاً من أهل اليمن، وقاضياً بحضرموت، شقَّ عصا الطاعة على آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، وبايعه أتباعُه بالخلافة، فاستولى على صنعاء، وراح ينازل الأمويين في اليمن والحجاز حتى قتل في وادي القرى سنة ١٣٠هـ.

حينما غَلَب عبد الله بن يحيى - ولقبُه طالب الحق - خطب في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلَّى على نبيّه وسلَّم، ووعظ وذكَّر، وحذَّر وأنذر، فكان ممَّا قال[١]:

«.. ندعوكم إلى فرائض بيِّنات، وآيات محكمات، وآثار نقتدي بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، وعَدْلٌ فيما حكم، وندعو إلى توحيد الربّ، واليقين بالوعد والوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله.

أيُّها الناس، إن من رحمة الله أَنْ جعل في كلِّ فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب الله، ويُقْتَلون على الحقِّ في سالف الأيام شهداءَ، فما نسيهم ربُّهم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤]. أُوصيكم بتقوى الله وحسنِ القيام على ما وُكِّلتم بالقيام عليه...».

ولعلك لاحظت أن ما قاله طالب الحق يخلو من مطالبة الخوارج بحقهم في الحكم، وأنه كلام عام لا يترجم آراء الحزب السياسية، وأن أوضح ما في كلامه من سياسة هو قوله: «الولاية لأهل الولاية»، وهي، على ما فيها من صراحة، لا تخصّ الخوارج، لأن كل حزب يدّعي أنه أهل الولاية.

وأجرأ منه وأوضح، وأشجع وأفصح، وأغزر خطباً شريكه وخليفته، أبو حمزة الشاري، واسمه المختار بن عوف الأزدي. قيل في ترجمته: كان من القادة الخطباء، والفتاك الشجعان. توجَّه من اليمن إلى الحجاز، وقد عقد النية على مقاتلة مروان بن محمد في الشام، غير أن أهل المدينة اعترضوه، فأعمل فيهم السيف، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وخطب فيمن بقي منهم بضع خطب، أوجز في بعضها وأطال في بعض.

من أشهر خطبه في المدينة خطبة يردّ فيها على من عيّره بجنده لحداثة أسنانهم، وخفة حلومهم. صعد أبو حمزة المنبر، وعليه كساء غليظ، وهو متنكب قوساً، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى وسلم على النبي وعلى آله، وراح يستعرض تاريخ الراشدين والأمويين استعراضاً يحلّل فيه سياسة كل خليفة تحليلاً مفصلاً على ضوء ما يؤمن به من آراء الخوارج فأعجب بالصدّيق

(١) الوثائق السياسية/ ٥١٤.

والفاروق وأطراهما أيّ إطراء، وأزرى بمن جاء بعدهما من عثمان بن عفان إلى مروان بن محمد.

في نهاية الخطبة راح يردُّ على من عاب أصحابَه، فصوَّر جنده تصويراً تخشع له القلوب، وتقشعرُّ الأبدان، إن قرأته بقلبك لا بعقلك وبعاطفتك الإنسانية، لا بآرائك السياسية خُيِّل إليك أن الخوارج ما خُلقوا إلا ليقاتلوا، وما قاتلوا إلا ليُقتلوا، وأن الشهادة أحبُّ إليهم من القيادة، وأن الدنيا خُلِقتْ لغيرهم، وأن أرواحهم أرخصُ ما يملكون، وبهذا الثمن البخس يشترون الجنة، ولذلك سمَّوْا أنفسهم الشُّراة تصديقاً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٧] وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١١].

ولنفاسة القسم الأخير من هذه الخطبة، ولما فيه من رهبة وخشوع في التصوير، وحرارة وتدفُّق في العواطف، وجزالة وفحولة في التراكيب، ونُصوع وتألُّق في الأسلوب رأينا أن نضعه وحده بين يديك، وأن نتجاوز عمَّا سبقه من فقرات تضمَّنت آراء الخوارج في السياسة والساسة، على أن نلتمس هذه الآراء في خطبة أخرى.

قال أبو حمزة الشاري يصفُ أصحابه لأهل المدينة[1]:

«بَلَغني أنَّكم تنتقصون أصحابي. قُلْتم: هم شبابٌ أحداثٌ، وأعرابٌ جُفاة. ويحكم يا أهل المدينة! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ، وآلهُ المذكورون في الخير إلّا شباباً أحداثاً... شبابٌ والله مكتهلون في شبابهم، غضيضةٌ عن الشرّ أعينُهم، ثقيلةٌ عن الباطل أرجلُهم، أَنْضاءُ عبادة، وأَطْلاحُ سَهَر. باعوا أنفساً تموت غداً، بأنفسٍ لا تموت أبداً، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنيةً أصلابُهم على أجزاء القرآن، كلَّما مرَّ أحدُهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شَهَق شهقةً، كأنَّ زفيرَ جهنَّمَ بين أذنيه.

(١) جمهرة خطب العرب/ ٤٦٩، والأغاني ٢٣/ ٢٤٠، الكلال: الإعياء، نضو عبادة: النضو: المهزول يريد أهزلته العبادة، أطلاح سهر: أعياه السهر وأنهكه، فوّق السهم: وضعه في الوتر ليرمي به، شبا: حدّ.

قد أكلت الأرضُ رُكَبَهم وأيديَهم وأنوفَهم وجباههم، ووصلوا كَلالَ الليل بكلال النهار، مصفرَّةٌ ألوانُهم، ناحلةٌ أجسامُهم، من طول القيام، وكثرة الصيام، مُسْتقِلُّون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، منجزون لوعد الله.

إذا رأوا سهام العدوّ وقد فُوِّقَتْ، ورماحهم وقد أُشْرعت، وسيوفَهم وقد انْتُضِيَتْ، وبرقت الكتيبةُ ورَعَدت بصواعق الموت، استخفُّوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخِفُّوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، ولَقُوا شَبَا الأسنة، وشائكَ السِّهام، وظُباتِ السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم. فمضى الشابُّ منهم قُدُماً، حتى اختلفتْ رجلاه على عُنق فرسه، واختضبتْ محاسنُ وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينهُ بالثرى، وانحطتْ عليه طيرُ السماء، وتمزَّقَتْه سباعُ الأرض.

فَطُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ، فكمْ من عينٍ في مِنْقار طائر، طالما بكى بها صاحبُها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يدٍ قد أُبينت عن ساعدِها، طالما اعتمدَ عليها صاحبُها راكعاً وساجداً، وكم من وجهٍ رقيقٍ، وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد. ثم بكى [أبو حمزة] وقال: آهِ آهِ على فراق الإخوان. رحمةُ الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحَهم الجنان».

قد يُخيَّل إليك أن الخطبةَ السابقة على نفاستها وجمالها خطبةٌ دينية، ليس فيها أَثارةٌ من سياسة. لكنها تقفُ القارئَ على طبيعة الحزب الذي صنعه زعماءُ الخوارج، وعلى جوهر التربية الصارمة التي نشَّؤوا على مفاهيمها أتباعَهم، وعلى مدى التقوى الذي أخذوا به أنفسَهم وجنودهم، وعلى درجة التضحية التي كان كبارُ الحزب وصغارُه يتسابقون إلى تقديمها بلا تردُّد ولا خوف.

إذا وضعتَ هذه المعاني والقيم بين عينيك، وأنت تنظرُ في الخطبة، لم يُخالجْك أدنى ريب في أنَّها تشكّلُ القاعدة والعقيدة اللتين استطاع الخوارجُ بهما أن يحوِّلوا المبادئَ النظرية إلى سلوك واقعي، يلتزمونه التزاماً حازماً، قلَّما تقعُ على ما يعادله في التطبيق الدقيق، والصدق الخالص، لدى الأحزاب الأخرى. فهي على هذا الأساس خطبةٌ دينية وسياسية، لا دينيةٌ خالصة.

أمَّا الخطبةُ السياسية الشاملة التي خطبها أبو حمزة الشاري في أهل المدينة، فقد انطوت على ستَّة أقسام يُفضي بعضُها إلى بعض، وتصوِّر عقيدةَ الحزب، ومنهجَه الاقتصاديَّ، والعواملَ التي دفعته إلى الثورة بالأمويين، وطبيعةَ الخوارج، ودعوتَهم باللسان قبل السنان، وتحريضَهم أهل المدينة على محاربة الأمويين.

- في القسم الأول من الخطبة حدَّد أبو حمزة الأُسُسَ النظريةَ التي قامت عليها دعوةُ الخوارج، وهي تعظيمُ الحقّ وتحقيرُ الباطل، وإطاعةُ الله فيما أمرَ به ونهى عنه، ومقاومةُ المعاصي التي يرتكبُها الناسُ عامَّة والحكامُ خاصَّة.
- وفي الثاني رسم الخطيب خطوطَ السياسة الاقتصادية التي يدعو إليها حزبُه، وهي المساواةُ في تقسيم الثروات، وإنفاقُ الأموال العامة في مصارفها، وتجرُّد الحكام من الطمع والجشع، والبطر والأشر.
- وخصَّص أبو حمزة ثالثَ الأقسام للأسباب التي حملته وأمثالَه من قادة الخوارج وجنودهم على الثورة ببني أمية. وأهمُّ هذه الأسباب تعطيلُهم الشريعةَ، وإغفالُهم المساواةَ، واضطهادهم أهلَ البرّ والإنصاف.
- وفي رابع الأقسام صوَّر الخطيبُ جنود الخوارج، وحلَّل طبيعة الطبقة المظلومة التي ينتمون إليها. فهم لا يجدون ما يركبون، ولا يُشْبعُهم ما يأكلون، لا يُقلُّهم وطاءٌ، ولا يظلُّهم غطاء، لكنَّهم، على فقرهم، متآزرون في السرَّاء والضراء، متآخون في الخَصْب والجدب، لا يحكمون بين الرعية إلَّا بالسويَّة.
- وخصَّص أبو حمزة الشاري خامسَ الأقسام من خُطبته لأهل المدينة، فسفَّه أحلامهم، وسخر من خضوعهم للأمويين، وبيَّن لهم أن هذا الخضوع جَرَّ عليهم الهزيمة المنكرة في «قُدَيْدٍ»، لأنهم ظاهروا الباطل، فَزَهَق وزَهَق سفهاؤهم معه، وظهر عليهم جندُ الحق، لأنهم أنصارُ الله وحزبُه الغالبون.
- وفي القسم الأخير حذَّر الخطيب أهلَ المدينة أن يناصروا بني مروان، وذكَّرَهم أمجادَهم القديمة، وأجدادهم الذين كان لهم أعظم الفضل في نشر الإسلام، ودعاهم إلى الانضواء تحت رايته، على ألّا يكلّفوا نفوسهم

فوق ما تطيق. وإليك نصَّ الخطبة، كما رواها الطبريُّ، وأبو الفرج الأصفهاني[١]، وابن عبد ربه[٢]:

رقيَ أبو حمزة الشاري المنبرَ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«١- أُوصيكم بتقوى الله وطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيّه ﷺ، وصلة الرحم، وتعظيم ما صغَّرت الجبابرةُ من حقِّ الله، وتصغير ما عظَّمت من الباطل، وإماتةِ ما أَحْيَوْا من الجَوْر، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يُطاع الله، ويُعصى العباد في طاعته. فالطاعةُ لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٢- ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيّه، والقَسْم بالسَّويَّة، والعدل في الرعية، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمرَ الله بها. تعلمون يا أهل المدينة أنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشَراً ولا بَطَراً، ولا عبثاً ولا لهواً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منّا.

٣- ولكنا لمّا رأينا مصابيحَ الحقّ قد أُطْفِئت، ومعالم العدل قد عُطِّلت، وكَثُرَ الادِّعاءُ في الدين، وعُمِلَ بالهوى، وعُنِّف القائل بالحق، وقُتل القائمُ بالقسط، ضاقتْ علينا الأرضُ بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن، وحُكْم القرآن، فأجبنا داعيَ الله، ومَنْ لا يجبْ داعيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرض.

٤- فأقبلنا من قبائل شتَّى، النَّفرُ منّا على بعيرٍ واحد، عليه زادُهم وأنفسُهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مُسْتضعفون في الأرض، فآوانا الله، وأيَّدنا بنصره، وأصبحنا بنعمته إخواناً، وعلى الدين أعواناً.

٥- ثم لقينا رجالكم بقُدَيْدٍ، فَدَعوْناهم إلى طاعة الرحمن، وحكم القرآن، ودَعَوْنا إلى طاعة الشيطان، وحكم مروانَ وآل مروان. فشتَّانَ - لعمرُ الله -

---

(١) ٢٣/ ٢٣٧.

(٢) ٤/ ١٤٤، الأشر: المرح أو شدته، البطر: الأشر أو غمط النعمة أو الطغيان عند النعمة، القسط: هنا العدل والحق، يتعاورون: يتعاقبون، يتناوبون، يزفون: يسرعون، جرانه: الجران، باطن عنق البعير أو مقدمه، ويريد هنا أن الشيطان قرّ قراره واستقام أمره.

ما بين الغيِّ والرشد. ثم أقبلوا يُهْرعون ويزفُّون، قد ضرب الشيطان بجرانه، وغلتْ بدمائهم مراجلُه، وصدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه، وأقبل أنصارُ الله عصائبَ وكتائبَ، بكلِّ مهنَّد ذي رونق، فَدارت رحانا، واستدارتْ رحاهم بضرب، يرتابُ منه المبطلون.

٦- وأنتمْ يا أهل المدينة، إنْ تنصُروا مروانَ وآلَ مروان يُسْحِتْكُم الله بعذاب مِنْ عنده وبأيدينا، ويشفِ صُدورَ قوم مؤمنين. يا أهل المدينة، إن أوَّلكم خيرُ أوَّل، وآخركم شرُّ آخر. يا أهل المدينة، الناسُ منا، ونحن منهم، إلّا مشركاً عابدَ وثَن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً جائراً، أو شاذّاً على عَضُده. يا أهل المدينة، مَنْ زعم أن الله تعالى كلَّفَ نفساً فوق طاقتها، أو سألَها ما لم يُؤْتِها، فهو لله عدوٌّ، ولنا حَرْبٌ».

من يرسل الطرف في خطب الخوارج عامة، لا فيما نُقل إلينا من خطب الشاريِّ وحده يدركْ أنها، بلا أدنى ريب، تمثل الصورة المُثلى للأدب الثوريّ الملتزم، وأنّها تبزُّ في التزامها - مضموناً وشكلاً - كلَّ ما عرف من صور الالتزام الأدبي على مدى تاريخنا الطويل كله، وعلى امتداد وطننا الواسع كله.

إننا لم نقفْ على أدب سياسي أو اجتماعي، ينتمي صانعوه إلى حزب من الأحزاب في عصر من العصور الأدبية العربية، ما قَدُمَ منها وما حَدُث، يمكن أن يُضاهيَ في التزامه ما التزم الخوارج في أدبهم؛ منظومهِ ومنثورِه. ولا نعرفُ كذلك أن أديباً من الأدباء طابق قوله فعله كما تطابقت الأقوالُ والأفعالُ لدى خطباء الخوارج، حتى كأنَّ ألسنتهم تقرِّر مصائرَهم، أو كأنَّ حياتهم وسياستهم هما أدبُهم وخطبُهم.

يتجلَّى الالتزام في استلهامهم الأفكار من المصدَرين اللذين يصدرون عنهما في التفكير السياسي، وفي تصوُّر الحكم المرجوِّ، وهما الكتاب والسنة. ففي كلّ خطبة من خطبهم يُلحُّون على استيحاء الآراء منهما إمَّا بنصوص اقْتُبِستْ بمعانيها ومبانيها، وإمّا بالمعاني وحدَها بعد تحوير يسير في اللفظ، كقول أبي حمزة: «ضاقت علينا الأرضُ بما رحبت» وقوله «فأجبنا داعيَ الله» وقوله: «فليس بمعجز في الأرض» وقوله: «يرتاب فيه المبطلون» وقوله: «أصبحنا بنعمته إخواناً» وقوله: «يشفِ صدورَ قوم مؤمنين».

ويتجلَّى الالتزام فيما أُثِر عنهم من زَهادة وعبادة، واجتهاد في الطاعة، وجهاد في سبيل المبدأ، وصراحة في الدعوة، وجرأةٍ في محاورة الخلفاء والأمراء، وإصرارٍ على الرأي، ولو أفضى بهم الإصرارُ إلى السجن أو القتل، بلا تقيَّة يدَّرعونها، وبلا مُداهنة تبلِّغهم كلَّ ما يطمعُ فيه سواهم من عرض الحياة الدنيا.

وربَّما كان التجلّي الأمثلُ والأخطرُ لالتزام ما التزمه خطباءُ الخوارج، ولم يَقْوَ على التزامه سواهم هو أنّهم قُتِلوا كلُّهم أو جلُّهم في ميادين الكفاح على نحو مروِّع، تحسبه من الأساطير، وهو الحقيقة في أصدق صورها.

فعبدُ الله بن وهب الراسبيّ قُتل قرب واسط [سنة: ٣٨هـ]، والمستوردُ بن علَّفة قُتل قرب دجلة [سنة: ٤٣هـ]، وصالح بن مسرَّح قُتل قرب الموصل [سنة: ٧٦هـ]، والمطرّفُ بن المغيرة قتل في نواحي أصفهان [سنة: ٧٧هـ] وقطريُّ بن الفجاءة قتل قرب الريّ أو طبرستان [سنة: ٧٨هـ]، وطالبُ الحق - واسمُه عبد الله بن يحيى - قتل في وادي القرى [سنة: ١٣٠]، وأبو حمزة الشاري قتل قرب مكة [سنة: ١٣٠هـ].

فأيُّ التزامٍ يُمكن أن يُقرَنَ، ولو على سبيل التقريب، بهذا الالتزام؟ وأيُّ حزب سياسيّ قديم أو جديد قتل أدباؤه وخطباؤه جميعُهم أو أكثرهم في سبيل ما يؤمنون به، سواءٌ أكانوا على حق أم على باطل؟

### ٤) خطب الزبيريّين

تفرَّد عبدُ الله بن الزبير بكونه السياسيَّ المحنَّك، والخطيبَ المفوَّه بين القادةِ والأمراء من رجال حزبه. فقد كان من خُطباءِ قريش المعدودين، ودُهاتها الأذكياء، وساستها ذوي الخبرة والقدرة. أمَّا أخوه مصعبٌ، وعضدُه عبد الله بن مطيع فقد وُهبا من الشجاعة والإقدام فوق ما وُهبا من البلاغة واللسن. وأمَّا الخطبُ التي أُثرت عنهما وعن أمثالهما من رجال الحزب الزبيريّ فإنَّها لا تبلغُ في الفحولة ما بلغته خطب الأمويين والشيعة والخوارج.

ولك أن تعلِّل هذا القصور تعليلاً سياسيّاً لا أدبيّاً، خلاصتُه أن ما كان يستند إليه خطباءُ هذا الحزب من أدلَّة وحُجج لا يُخالف ما كان يستند إليه الأمويون، ولا يبلغ في العمق والإثارة والإخلاص للمبدأ ما تجدُه لدى خطباء الشيعة والخوارج.

فعبدُ الله بن الزبير رأسُ الحزب الزبيري قرشيٌّ أسديٌّ، وكُبْرَى مناقبه التي يحتجُّ بها في المطالبة بالخلافة انتماؤه إلى بطن من بطون قريش، وإلى واحد من رجالها الأعلام، فهو يساوي معاوية بن أبي سفيان في الأسرة، ويفضلُه في الأب، إذْ كان أبوه الزبيرُ بن العوّام ابنَ عمة النبي ﷺ، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وصاحب السيف الأول الذي سُلَّ دفاعاً عن الإسلام، وشهد بدراً وأُحداً وغيرهما من غزوات النبي ﷺ، وكان في صدره أمثالُ العيون من أطلال الرماح والسهام التي تلقاها.

لم يكن لمعاوية مثلُ هذه المآثر؛ فأبوه أسلم يوم فتح مكة، وأمّه هند كانت تحرض المشركين على الثأر في أحد، لكنه كتب للنبيّ ﷺ، وتولَّى الإمارة في عهد عمر. غير أن ابن الزبير يستطيع أن يزاحمه ويزحمه، ولا يستطيع أن يزاحم الحسين بن علي رضي الله عنهما. والخطبُ السياسية في العصر الأموي لم تكن تعتمد على الفصاحة والبيان، وإنما كانت تعتمد على الحجج التي يتقوَّى بها كل حزب وعلى المناقب التي يعتزُّ بها كلُّ مطالب، وحجج الزبيريين لا تبزُّ من الناحية النظرية حجج الأمويين إلّا قليلاً.

من استعراض الخطب الزبيرية يتبين لك أن عبد الله بن الزبير كان على افتضاح المثالب الأموية أحرص منه على امتداح المناقب الزبيرية، وكأنَّه كان يريد أن يجعل جاهليَّةَ الأمويين هاوية يلقي فيها بني أمية، ومناقب أسرته سلَّماً يرقاه إلى الخلافة. ولهذا كان يغوص في أكثر خطبه على جذور معاوية الجاهلية فيزري بها، ويتناسى مناقبه الإسلامية، فلا يُطريها، حتى بعد أن آلت إليه الخلافة.

وربَّما كان معاويةُ من حيثُ لا يريد، أو على غير قصدٍ منه، عوناً لابن الزبير على ما يطلب، إذْ كان يستثيرهُ حينما ينكر عليه مآثره، ويحاولُ أن ينتقصه على مَسْمع ومشهد من وجوه قريش. خطب معاوية، وأبو عبد الله الحسين بن علي ومولاه ذكوان في المجلس، فقال[1]:

«قاتلك الله يابنَ الزبير، ما أعياك وأبغاك! أتفخرُ بين يديْ أمير المؤمنين وأبي عبد الله؟ إنك أنت المتعدّي لطَوْرِك، الذي لا تعرفُ قَدْرَك، فقِسْ

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ١٦٠، أعياك: أجهلك وأبعدك عن الصواب، عرانين: سادة وأشراف.

شبرَك بفترك، ثم تعرَّفْ كيف تقعُ بين عرانين بني عبد مناف. أما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتقطعنَّك بأمواجها، ثم لَتُوهينَّ بك في أجاجها. فما بقاؤُك في البحور إذا غمرتك، وفي الأمواج إذا بهرتك؟».

إن خطبة معاوية، على جمالها الذي يبهر الخيال بصوره، لا تملأ العقل، بل تستثير العواطف، ولا تقدِّم الأدلة الدامغة، لأن شطر ما يعتزُّ به معاوية عاريةٌ يستعيرها من بني هاشم. أمَّا عبد الله بن الزبير فقد ردَّ عليه ردّاً مشفوعاً بأحداث وأسماء، فأفحمه. لقد أطرق مليّاً، ثم رفع رأسه وقال، وهو يخاطب مَنْ حوله من قريش:

«أسألُكم بالله، أتعلمون أنَّ أبي حواريُّ رسول الله ﷺ، وأن أباه حاربَ رسولَ الله ﷺ؟ وأن أمي أسماءُ بنتُ أبي بكر الصدِّيق، وأمّه هند آكلةُ الأكباد؟ وجدّي الصدّيق، وجدُّه المشدوخُ ببدر ورأسُ الكفر، وعمتي خديجةُ ذاتُ الخطر والحسب، وعمته أمُّ جميل حمَّالةُ الحطب؟ وجدتي صفيَّةُ، وجدته حمامةُ؟ وزوج عمتي خيرُ ولد آدم محمد ﷺ، وزوج عمته شرُّ ولد آدم أبو لهب، سيصلى ناراً ذات لهب؟ وخالتي عائشة أمُّ المؤمنين، وخالته أشقى الأَشْقَيْنَ؟ وأنا عبدُ الله، وهو معاوية؟»[١].

وعلى الرغم من تساوي عبد الله بن الزبير ومعاوية بن أبي سفيان في النسبِ القرشيّ، فإن من يقرأ خطب عبد الله يدركْ أن جذوره ظفرت بمآثر لم تظفر بمثلها جذور معاوية. فهل استطاع معاوية بعد أن تولَّى الخلافة أن يغسل أوضارَ الجاهلية بأنوارِ الإسلام ليكفّ عن فروعه لسان ابن الزبير؟

يبدو أن معاوية عجز عن أن يمحو قديمَه بجديدِهِ، وعن أن يغسل مثالبَ سلفهِ بمناقبِ خلفه، لأن ابنه يزيد، على ما فيه من محاسن، لا يمكن أن يُقْرن بلِدَاتهِ من فتيان قريش. قال الذهبيّ في ترجمته[٢]: «كان يزيد ممَّن لا نسبُّه ولا نحبُّه» وقال في سرد حسناته وسيئاته: «كان قويّاً شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وله شعر جيد. وكان ناصبيّاً فظّاً جلفاً غليظاً يتناول المُسْكر

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ١٦٠، حمامة: إحدى البغايا في الجاهلية.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥.

ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيدِ الحسين، واختتمها بواقعة الحرَّة، فمقَتَه الناس».

وروى السيوطيُّ عن الواقديِّ[١] «أن يزيدَ كان يشربُ الخمر ويدعُ الصلاة».

ومهما تحاولْ أن ترميَ المؤرِّخين بالغُلوِّ في تجريح يزيد، فإنَّك بعد أن تُرْسلَ مقصَّ التشذيب في أقوالهم تظلُّ عاجزاً عن إرساله في أحداث التاريخ، وفي الأخبار التي كادت تُجمع على أنه لم يكن جديراً بالخلافة.

إن أقرب المقرّبين إلى معاوية الذين شجَّعوه على مبايعة يزيد لم يكونوا مخلصين له، ولا ناصحين للأمة. بل زيّنوا له ما زيَّنوا، وتملَّقوا وأَدْهنوا، ليوقعوه في شَرَكٍ. قال الذهبيّ[٢]: «إن المغيرة بنَ شعبة أشار على معاوية ببيعة ابنه، ففعل. فقيل له: ما وراءَك؟ قال: وضعتُ رجل معاوية في غَرْزِ غيّ، لا يزالُ فيه إلى يوم القيامة».

ولم يكن عبد الله بن الزبير بالغبيّ الغافل، فتفوته عثرةٌ عَثَرها معاوية، بل اهتبلها نُهْزَةً سانحة، لا ليقيله من عثرته، بل لينقضَّ عليه، وعلى سياسته بلسان التجريح الصريح، يُسَفِّه رأيه، ويُطري الصفوة من أبناء قريش، ويُسْخِط عليه عامَّة المسلمين وخاصَّتهم بخطبة قصيرة محكمة. فقال[٣]:

«الحمدُ لله الذي عرَّفنا دينَه، وأكرمنا برسوله، أحمدُه على ما أَبْلَى وأَوْلَى، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمّداً عبده ورسوله. أمَّا بعدُ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصَّةً، تتناولها بمآثرها السَّنِيَّة، وأفعالها المَرْضِيَّة، معَ شرف الآباء، وكرم الأبناء. فاتَّقِ الله يا معاوية، وأنصِفْ من نفسك، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وهذا عبدُ الله بن جعفر ذي الجناحين، ابن عم رسول الله ﷺ. وأنا عبدُ الله بن الزبير ابن عمَّةِ رسول الله ﷺ، وعليٌّ خلَّفَ حَسَناً وحسيناً، وأنت تعلمُ مَنْ هما، وما هما فاتَّقِ الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبينَ نفسك».

يتبدَّى دهاءُ ابن الزبير في إطرائه مَنْ أطرى من أعيان قريش، إذْ بدأ في

(١) تاريخ الخلفاء/ ١٩٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩.
(٣) جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٤٨.

خطبته بغيره ولم يبدأ بنفسه، لئلا يُحْفِظَ عليه بني هاشم، ولكي يقطع على معاوية سُبل الاعتراض. صحيحٌ أنه لم يستطع أن يُثبتَ حقَّه في الخلافة، لكنه استطاع أن يدحضَ حقَّ يزيد فيها. وهذا جُلُّ ما كان يطمع فيه. لقد اكتفى بانتزاع الحق من يزيد، لا ليعطيه واحداً من أهل البيت، بل ليتربَّص على أمل يراوده، عَسَى أن يسوق القدرُ الخلافة إليه.

أمَّا معاويةُ فلم ينزع رجلَه من غَرْز المُغيرة، وبايع لولده يزيد، وحَمَل الناسَ على البيعة له. وبعد أن آلت الخلافة إلى يزيد تنفيذاً لهذه البيعة هبت الثورات، ونشطت المحاورات، وألقيت الخطب، وأدلى فيها قادة عبد الله بن الزبير وولاته بدلائهم، لكنهم لم يبرعوا براعة الشيعة والخوارج.

من هؤلاء القادة مصعب بن الزبير أخو عبد الله وعضده في الثورة والمطالبة بالخلافة. تولى البصرة لأخيه سنة ٦٧هـ، وقتل المختار الثقفي سنة ٦٨هـ، وحارب جيوش الأمويين وهزمها واحداً واحداً، وظل ينتقل من نصر إلى نصر حتى قتل سنة ٧١هـ في دير الجاثليق، على شاطئ دجيل.

لم يكن حظُّ مصعب من البيان مثلَ حظه من الشجاعة، ولم يُحْسن الخطابة كما أحسنَ القيادة، لكنه كان يوضع في مواضع لا مندوحة له فيها عن الخطابة فيخطب. ذكر المؤرّخون أنه حينما ورد البصرة والياً على العراق دخل المسجد، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ١-٤] وأشار بيده إلى الشام ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥] وأشار بيده إلى الحجاز. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦] وأشار بيده إلى العراق».

ليس في هذه الخطبة - إذا جاز لنا أن نُسمِّيَها خطبة - شيءٌ من كلام مصعب إلّا ما أُغْفل ذكرُه، وهو حمدُ الله والثناء عليه. فكيف تُعزى إليه، وهي

(١) الوثائق السياسية/ ٢٣٩.

ستُّ آيات من سورة القصص؟ ولماذا ركب الخطيب هذا المركب الصعب؟

ربّما كانت هذه الآيات مقدّمة خطبة أهملها الرواةُ، واكتفوْا بالآيات البينات ليبرهنوا أن كلام الله فوق كلام البشر، وأنه يحتفظ بإعجازه في الدلالة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في كل زمان وكل مكان:

فالقسم الأول دلَّ على جَوْر الأمويين، وأعطى الرعيةَ الحقَّ في الثورة على الرعاة الطغاة. والثاني دلّ على عودة الحق إلى ذويه بثورة عبد الله بن الزبير، لأنه يمثل البقية الباقية من جلَّةِ الصحابة والتابعين الذين ظلمهم الأمويّون. والثالثُ إنذار لأهل العراق وتحذيرٌ لهم من النفاق، وللأمويين من الطغيان.

ومن القادة الخطباء في الحزب الزبيريّ عبدُ الله بن مطيع بن الأسود العدوي القرشي. كان جَلْداً شجاعاً، صاحب نخوة ومروءة ودين. حارب الأمويين يوم الحرَّة، واستعمله عبدُ الله بن الزبير على الكوفة، وبقي مخلصاً لابن الزبير بعد أن خذله أكثرُ أصحابه، وقُتل معه في حصار مكة سنة ٧٣هـ.

حينما أنفذه ابنُ الزبير إلى العراق والياً على الكوفة، خطب في أهلها - وأكثرهم من شيعة عليّ - خطبة فيها من الحزم مثلُ ما فيها من الحلم، ومن الوعيد مثلُ ما فيها من الوعد، وهي عند التحقيق تصوِّر مهارة الوالي في الإدارة، وقدرته على استلهام منهجه السياسيّ والإداري من الواقع العملي، لا من التصوُّرِ النظريّ. قال ابن مطيع[1] بعدما حمد الله وأثنى عليه:

«أمَّا بعدُ، فإن أمير المؤمنين عبدَ الله بن الزبير بعثَني على مِصْركم وثغوركم، وأمرني بجباية فَيْئِكم، وألَّا أحملَ فضلَ فيئكم عنكم إلَّا برضىً منكم، ووصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين.

اتّقوا الله، واستقيموا، ولا تختلفوا. خُذوا على أيدي سفهائكم، وإلَّا تفعلوا تلوموا أنفسكم، ولا تلوموني. فوالله لأُوقِعَنَّ بالسقيم العاصي، ولأقيمنَّ دَرْءَ الأَصْعر المرتاب».

نهض السائب بن مالك، وقال له: «أمَّا سيرةُ عثمان فكانت هوىً وأَثَرة،

(١) الوثائق السياسية/ ٢٤١، درء: اعوجاج، اختلاف، الأصعر: المعرض عن الحق.

فلا حاجة لنا فيها. وأما سيرةُ عمر فأقلُّ السيرتين ضَرَراً عَلَيْنا، ولكنْ عليك بسيرة عليّ بن أبي طالب، فإنّا لا نرضى بما دونها».

فقال ابن مطيع: «نسيرُ فيكم بكلِّ ما تهوون وتريدون».

إذا نظرت إلى الخطبة السابقة بعين الناقد الباحث عن الجمال الفني لم تجد في شكلها ما يُعجب ويُطرب. فهي كلام مُرْسَل، زهد صاحبه في التصوير والزخرفة والإيقاع، وعُني بإبراز خطته الاقتصادية بعبارات كالقوانين الموجزة.

وإذا نظرت إليها بعين السياسيِّ المعنيّ بالمضمون أعجبك منها هذا الحوارُ السريع بين الراعي والرعية: الوالي يطرحُ ويقترحُ، والسامعُ يناقش ويعترض، والمحاورةُ تُفْضي إلى اتّفاق أساسُه الشورى لا الاستبداد.

إن ازدهار الخطبة السياسية في كلّ عصر من الأعصار، وفي كلّ مِصْرٍ من الأمصار مرهونٌ بعوامل أبرزُها: شخصيات الزعماء والخطباء، واصطراع الأحزاب والآراء، واصطخاب الأحداث والمعارك. وقد حظي الشيعة والخوارج والأمويون بزعماء برعوا فيما خطبوا، ولم يتهيأ للزبيريّين إلّا عبدُ الله بن الزبير، فجاءت خطبه أجود من خطب ولاته وقواده.

لقد أتيح للزبيريين من صخب الأحداث وعنف الصراع ما أتيح للأحزاب الأخرى، فأفاد منها ابن الزبير في الارتقاء بالخطبة السياسية، وأبرز هذه الأحداث البيعة ليزيد بن معاوية، ومصرع الحسين بن علي ﷺ، ومقتل أخيه مصعب. وكنا قد وقفناك على ما قال عبد الله في البيعة ليزيد.

أمَّا مصرعُ الحسين بن عليّ ﷺ فربّما كان أهم الأحداث في تاريخ ابن الزبير السياسي، وأخطر الفواجع التي ارتقت بخطبته السياسية. لقد استطاع أن يُفجّر من هذا الحدث الجَلَل مشاعر الغضب على الأمويين، والرضى عن مطمحه الذي لبث أمداً طويلاً، وهو يتربَّصُ للوثوب إليه، فلا يجد السانحة المؤاتية، فلما صُرع الحسين كان مصرعه هذه السانحة.

وقد أعانه على هذا الوثوب عواملُ كثيرة، أبرزُها أن شيعة العراق اتُّهموا بأنهم تَخَلَّوْا عن إمامهم وأسلموه إلى القتل، وأنهم صُعقوا بفاجعته، فطغى عليهم الندم، وأربكهم المصاب، وشغلهم الحزن عن المطالبة بالخلافة.

وثانيها أن الخوارجَ لم يكونوا مع الحسين وأبيه قبلَ مصرعهما، فكيف يطالبون بالثأر لهما؟

وثالثُها أنَّ الأمويين عامّةً ويزيد خاصّةً أصبحوا أبغضَ العرب إلى المسلمين لارتكابهم ما ارتكبوا، فارتفعت مكانة ابن الزبير.

ورابعُها أن ابنَ الزبير كان راغباً في خروج الحسين من الحجاز، وأن عبد الله بن عباس أتى الحسين في داره، ليردَّه عن قصده فأخفق. روى ابن عساكر الخبر[١]، ثم قال في خاتمته:

«... خرج عبد الله بن عباس من عند الحسين، وهو مُغْضَب، وابن الزبير على الباب. فلمّا رآه قال: يابن الزبير، قد أتى ما أَحْبَبْتَ، أقرَّت عينُك؟ هذا أبو عبد الله - يعني الحسين - يخرج، ويتركك والحجازَ:

**يا لكِ من قُبَّرةٍ بمعمرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري**
**ونقِّري ما شِئتِ أن تُنَقِّري»**

هذه العواملُ وغيرها مهَّدت الطريق أمام عبد الله بن الزبير، فاهتبلها، وراح يخطبُ في الحجاز - كما توقَّع ابنُ عباس - خطبةً، لا يطالبُ فيها بالبيعة لنفسه بنفسه، بل يُوحي إلى الناس أنه الوحيد الجديرُ بالخلافة. وحينئذٍ يُبايعه الناس، على غير رغبة رغبها فيها كما يظنُّون، وهو عند التحقيق أحرصُ الناس عليها.

قال الطبري[٢]: «لما قُتل الحسينُ عليه السلام، قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة... فقال:

«إن أهلَ العراق غُدُرٌ فُجُرٌ إلّا قليلاً، وإنّ أهل الكوفة شِرارُ أهل العراق، وإنهم دَعَوْا حسيناً لينصروه ويولُّوه عليهم. فلمّا قدمَ عليهم ثاروا إليه، فقالوا له: إمَّا أن تضعَ يدك في أيدينا، فنبعثَ بك إلى ابنِ زياد بن سُميَّةَ سلْماً فَيُمْضِيَ فيك حكمَه، وإمَّا أن تُحاربَ. فرأى والله أنه هو وأصحابه قليلٌ في كثير - وإن كان الله عزَّ وجلّ لم يُطْلِعْ على الغيب أحداً - أنه مقتولٌ. ولكنه اختار الميتةَ

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ١٤٢.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٣.

الكريمة على الحياةِ الذميمة. فرحم الله حُسَيْناً، وأَخْزَى قاتل حسين. لَعمْري لقد كان من خلافهم إيَّاه وعصيانهم ما كان في مثله واعظٌ وناهٍ عنهم. ولكنَّه ما حُمَّ نازلٌ، وإذا أرادَ الله أمراً فلن يُدْفع. أفبعدَ الحسين نطمئنُّ إلى هؤلاء القوم، ونصدِّقُ قولَهم، ونقبل لهم عهداً؟

لا، ولا نراهم لذلك أهلاً، أما والله لقد قتلوه؛ طويلاً بالليل قيامُه، كثيراً في النهار صيامُه، أحقَّ بما هم فيه منهم، وأوْلى به في الدين والفضل. أما والله ما كان يُبَدِّلُ بالقرآن الغناءَ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداءَ، ولا بالصيام شربَ الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركضَ في تطلاب الصيد (يُعَرِّضُ بيزيد)، فسوف يلقون غيّاً».

قال الطبري: «فثار إليه أصحابُه، فقالوا له: أيُّها الرجل، أظهر بيعتك، فإنه لم يبقَ أحدٌ، إذْ هلك حسين، (وكان) يُنازعُك هذا الأمر. (فاستجاب لما طلبوا) وكان يبايعُ الناس سرّاً، ويُظهرُ أنه عائذ بالبيت».

وأمَّا مقتلُ مصعب فقد كان وقعُه على قلبه أشدَّ من كلِّ الأحداث التي سبقته، وأنطقه بخطبة جمعت حرارة العاطفة إلى عمق الاعتبار، وجمال الأسلوب إلى جودة المعاني، فرواها الطبري وابن قتيبة، والأصفهاني، وابنُ عبد ربه، وكثير من المؤرخين والأدباء، فقالوا:

«لمَّا قَتَل عبدُ الملك بنُ مروان مصعبَ بن الزبير سنة ٧١هـ، وانتهى خبرُ مقتله إلى عبد الله بن الزبيرِ أضرب عن ذكره أياماً، حتى تحدَّث به إماءُ مكة في الطريق. ثم صعد المنبر، فجلس عليه مليّاً، لا يتكلّم، والكآبةُ على وجهه، وجبينُه يرشح عرقاً. فقال رجلٌ من قُرَيش لرجل إلى جانبه: ما له لا يتكلَّم؟ أتُراه يهابُ المنطق؟ فوالله إنه للبيبُ الخطباء. قال: لعلَّه يريدُ أن يذكر مقتلَ مصعب سيد العرب، فيشتدّ ذلك عليه، وهو غيرُ ملوم». ثم تكلَّم، فقال[1]:

---

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ١٧٥، والوثائق السياسية/ ٢٣٦، والعقد الفريد ١/ ١٠١، وعيون الأخبار ٢/ ٢٤٠، نموت قَعْصاً: نموت في مكاننا برمية أو طعنة، الطغام: أرذال الناس وأوغادهم، المخطمة: من الخطام وهو الحبل الذي يقاد به البعير وغيره، مات حتف أنفه: مات على فراشه.

«الحمدُ لله الذي له الخلقُ والأَمْرُ، ومُلكُ الدنيا والآخرة، يُؤْتي الملكَ مَنْ يشاء، وينزع الملك ممَّن يشاء، ويُعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء. أمَّا بعدُ، فإنه لم يُعِزَّ الله مَنْ كان الباطلُ معه، وإن كان معه الأنامُ طُرّاً، ولم يُذِلَّ من كان الحقُّ معه، وإن كان مُفْرداً ضعيفاً.

ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق، بلدِ الغدر والشقاق، فساءَنا وسرَّنا: أتانا أنَّ مُصْعباً قُتِل، رحمة الله عليه ومغفرته. فأمَّا الذي أَحْزَنَنا مِن ذلك فإن لفراق الحميم لذعةً ولوعةً، يجدها حميمُه عند المصيبة، ثم يرعوي من بعدُ ذو الرأي والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء. وأمَّا الذي سرَّنا منه فإنّا قد علمنا أن قتله شهادةٌ له، وأنه عزَّ وجلَّ جاعلٌ لنا وله في ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى.

أسلمه الطغامُ الصمُّ الآذان، أهلُ العراق، إسلامَ النَّعَم المخطَّمة، وباعوه بأقلَّ من الثمن الذي كانوا يأخذون منه. فإنْ يُقْتَل فقد قُتِلَ أبوه وعمُّه وأخوه، وكانوا الخيارَ الصالحين، إنَّا - والله - لا نموتُ حتْفَ آنافنا ولكنْ قَعْصاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان. والله ما قُتل منهم رجلٌ في زحف في جاهليةٍ ولا إسلام قطُّ.

ألا، وإنَّما الدنيا عاريَّة من المِلِكِ القهّار الذي لا يزول سلطانُه، ولا يبيد ملكُه، فإن تُقْبل الدنيا عليَّ لم آخذْها أخذَ الأَشِرِ البطر، وإن تُدْبر عني لم أبكِ عليها بكاء الخَرِق المهين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». ثم نزل.

ومع أن العواطف الشخصية طَغَتْ على فِقرات من الخطبة السابقة، فإن الفكر السياسي تجلَّى في خمسة محاور:

- أوّلُها أنَّ صاحب الحقّ في الخلافة - وهو ههنا عبد الله بن الزبير - يجبُ أن يُصرَّ على حقِّه، ولو تخلَّى عنه كلُّ الناس.
- وثانيها أن مَقْتَل مصعب - على فداحته - جزءٌ من الجهاد في سبيل الحق، وشرفٌ له ولأخيه.
- وثالثُها أن تَبِعة ما حَدَث تُلْقَى على ظهور الخونة من العراقيين الذين خذلوه ساعة العسرة.
- والرابعُ أن بني أمية ليسوا رجالَ حرب، بل وصلوا إلى الحكم بسيوف غيرهم.

- والخامسُ أن ابن الزبير لم يطلب الخلافة طمعاً في الترف، بل قمعاً للباطل، لأن الدنيا عنده أخسُّ من أن تُطلب.

أمّا الجانبُ البياني أو الفني في هذه الخطبة، وفي كلِّ ما أُثر عن ابن الزبير فإنه يتخذ مظاهر عديدة:

- منها القدرةُ على الإثارة العاطفية، وتسخيرُ الأحداث لاستمالة الناس، وإغضابهم على الأمويين.
- وثانيها التسلسلُ المنطقي في عرض الأفكار من مقدِّمات الخطب إلى خواتيمها، لإقناع مَنْ يسمعون الخطيب.
- وثالثها استلهامُ المعاني من التاريخ العربي جاهليّه وإسلاميّه، ومن الكتاب والسنة.
- ورابعُها الأسلوبُ الإنشائي الملائم للخطابة، كالإكثار من القسم والاستفهام والأمر والنهي والنداء.
- والخامسُ التعريضُ الذكيُّ ببني أمية عامَّة، وبيزيد خاصَّة، واستعمالُ هذا الأسلوب لإبراز مناقب مصعب بفضح مثالب يزيد، وتأييدُ هذا التعريض بوقائع مشهورة وحقائق مأثورة، لا بالشتم واللعن.

وخلاصةُ الرأي في خطب عبد الله بن الزبير أنَّها ارتقتْ بفنّ الخُطبة السياسية، واحتلَّتْ في تاريخ الأدب العربيِّ مكانة مرموقة، تُضارع أو تُقارب مثيلاتها من خُطب زياد والحجَّاج.

### ٥) خطب المختار الثقفي:

لم نستطع أن نسلكَ المختارَ بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي [ت: ٦٧هـ] في حزب من الأحزاب السياسية لأنه كان كثير التقلُّب، يميلُ مع أنواء السياسة، وأهواءِ المصالح، ورياح المنفعة حيث تميلُ. وعلى الرغم من ذلك كلِّه، فقد جعله د. شوقي ضيف من خطباء الشيعة، ودعاتهم الكبار فقال - وآخر قوله ينقضُ أوَّلَه[١] -:

(١) العصر الإسلامي/٤١٦.

«من خطباء الشيعة وكبار دُعاتهم في هذا العصر المختارُ الثقفي، وكان خارجيّاً، ثم صار زبيريّاً ثم صار رافضيّاً. وقد ثار في العراق، غير أن مصعب بن الزبير قضى عليه سنة ٦٧هـ. وكان يذهبُ في سيرته وخطابته مذهباً قريباً من مذهب الكهنة في الجاهلية، فكان يزعمُ أنه يوحى إليه، وكان يتخذ السجع دلالةً على هذا الوحي.. وكان يوفّر من غير شك في أثناء ذلك لكلامه ضروباً مختلفة من التكلُّف».

يغلب على ظننا أن المختار اتَّجر بالتشيُّع، ولم يُخْلصْ له، وانتقم من قتلة الحسين بقتله شمر بن ذي الجوشن، وخولي بن يزيد، وعمر بن سعد لحاجة في نفسه، إذْ ليس من المعقول أن يصدِّق أهل البيت النبوي مَنْ يتنبّأ، ويستنزل الوحي بأباطيله، ويخادع الدهماء بأسجاع سخيفة كأسجاع مسيلمة الكذاب. إن أصدق ما يُحدِّد طبيعة المختار ومذهبه السياسي نصٌّ صوَّر فيه المختار نفسه، ونقله عنه الطبريُّ، فقال[١]:

«لمَّا خرج المختارُ من قصر الإمارة في الكوفة، وقد حصره رجالُ مصعب بن الزبير قال للسائب بن مالك الأشعريّ: إنَّما أنا رجلٌ من العرب، رأيتُ ابنَ الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروانَ على الشام، فلم أكنْ دون أحدٍ من رجال العرب، فأخذتُ هذه البلادَ، فكنتُ كأحدهم، إلا أنّي قد طلبتُ بثأر أهلِ بيت النبيّ ﷺ إذْ نامت عنه العرب».

وممّا يؤيِّدُ ما زعمنا قولُ الزركليّ في ترجمته: «شاعتْ في الناس أخبارٌ عنه بأنه ادَّعى النبوة، ونزولَ الوحي عليه، وأنَّه كانَ لا يُوقَفُ له على مَذْهَب». وعلى هذا المحمل تستطيعُ أن تحمل خطبته في الكوفة حينما طالبَ بدم الحسين مُدَّعياً أنَّ محمد بن الحنفية أنفذه لهذا الغرض، فقال[٢]:

«أمَّا بعدُ، فإن المهديَّ ابنَ الوصيّ، محمَّدَ بن عليّ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً، ومنتخباً وأميراً، وأَمَرني بقتال الملحدين، والطلبِ بدماء أهل بيته، والدفع عن الضعفاء».

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ١٥٥.

(٢) الوثائق السياسية/ ٢٤٥.

وعلى المَحْمَل نفسه تحملُ خطبته الموقَّعة على توقيع السجع حينما دخل الكوفَة منتصراً، فحمد الله على ما أولاه، لكنه لم يطالب بالبيعة لنفسه، بل طالب بها لأهل البيت، لأنه كان يعلمُ علم اليقين أنه لو أرادها لنفسه لما مُدَّت إلى يده يدٌ، فآثر أن يُنيب يَدَه عن أيديهم، ليفوز من أهل الكوفة المتشيّعين بالرضى، ومن الطالبيِّين بولايةٍ أو منصب. فقال[١]:

«الحمدُ لله الذي وعد وليَّه النصرَ، وعدوَّه الخُسْرَ، وجعله فيه إلى آخر الدهر، وعداً مفعولاً، وقضاء مقضيّاً، وقد خاب من افترى.

إنهُ رفعت لنا رايةٌ، ومُدَّت لنا غاية، فقيل لنا في الراية: ارفعوها ولا تضعوها، وفي الغاية: اجروا إليها، ولا تعتدوها. فسمعنا دعوةَ الداعي، وإهابةَ الراعي. فكم من ناعٍ وناعية، يُقتل في الواغية. وبُعْداً لمن طغى، وكذَّب وتولَّى.

ألا ادخلوا أيُّها الناس، فبايعوا بيعةَ الهدى، فوالذي جعلَ السماء سقفاً ملفوقاً، والأرض فجاجاً سُبلاً، ما بايعتُم بعد بيعة أمير المؤمنين عليّ وآلِ عليّ بيعةً هي أهدى منها».

لو كان المختارُ صادقَ التشيّع، يَعُدُّ البيعةَ لعليّ وآل عليّ - ﷺ - بيعةَ الهدى، لعدَّ البيعة لغيرهم بيعة الضلال، ولازدجر عن مناصرة عبد الله بن الزبير قبل أن يطالب الناس بالبيعة للهاشميين.

إن كتب التراجم تروي أن عبد الله بن الزبير، بعد موت يزيد بن معاوية، قام في المدينة، فصار المختار إليه، وعاهده وعاضده، وحارب معه، ثم استأذنه في التوجّه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى بيعته، فغدر به.

وزبدةُ القول أنَّ خطب المختار المسربلة بقيود السجع لا تنطوي إلَّا على يسيرٍ ممّا عُرفت به خطب الشيعة من تعظيم صادق لأهل البيت، وإجلالٍ عميق لعلي وبنيه، وتفجُّعٍ حارٍّ على الحسين، لأنها صنعةُ الدهاء الباحث عن المنفعة، لا بوحُ القلب النابض بحبِّ الأحياء، والحزن على الشهداء.

---

(١) المرجع السابق/٢٤٨، الغاية: المدى والمنتهى، الواغية: الوغى، الحرب، ملفوق: مضموم بعضه إلى بعض.

## ز- استنباط السمات من خطبة واحدة

دأَبَ مؤرخو الأدب العربي ودارسوه على أن يختموا تأريخ الخطابة ودراستها في كلّ عصر من العصور بالكلام على سماتها الفكرية والفنية مستنبطةً من خطب العصر كلِّها. وفي هذا الأسلوب من الشمول ما يُفْقد الدراسةَ دقَّتَها، والأحكام صحَّتَها، ويجعلها أقربَ إلى الملاحظات العامّة لخلوّها من الأدلة، إذْ يشقُّ على الدارس أن يشفع السمات بالشواهد بعد أن يضعَ نفسه بين ثلاث طرائق:

أولاها أن يؤيِّد السمة الواحدة بشواهد متعدِّدة، يختارُها من كلِّ قسم، ليثبت أن الأقسام كلها موسومةٌ بما زعم.

والثانيةُ أن يجتزئَ بشاهد واحد من قسم واحد، فيخطئ في الأحكام، لأنه يوسِّع الضيِّق، ويعمِّم الخاصَّ.

والثالثة أن يُغْفِلَ الشواهد، ويُرْسل الكلام على عواهنه، فتأتي فتاواه بلا أدلَّة، ومحاكماته بلا شهود.

وخيرٌ من ذلك كلِّه، كما نزعم، أن نضعَ بين يدي القارئ خطبةً واحدة، نستخرج منها سماتها، ونعمِّم من هذه السمات ما يُمكن تعميمُه على خطب العصر الأموي كلّها، أو نضيف إليها أو نستثني منها ما تحسُن إضافتُه أو استثناؤه إنْ شقَّ علينا التعميم، على النحو الذي نحوناه في الجزء الرابع من هذه السلسلة: «النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة».

### ١- خطبة الحجاج حين ولي العراق سنة ٧٥هـ

حدَّث عبد الملك بن عمير الليثي، قال[١]:

بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهلُ الكوفة يومئذ ذَوُو حال حسنة، يخرجُ الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذْ أتى آتٍ، فقال: هذا الحجَّاجُ قد قدم أميراً على العراق. فإذا به قد دخلَ المسجد مُعْتمّاً بعمامة، قد غطَّى بها أكثرَ وجهه، متقلِّداً سيفاً، متنكِّباً قوساً، يَؤُمُّ المنبر، فقام الناسُ نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعةً لا يتكلَّم، فقال الناس بعضُهم لبعض:

(١) جمهرة خطب العرب ٢/ ٢٨٨، ابن جلا: الصبح وقيل: أنا ابن رجل جلا الأمور وكشفها، طلاع الثنايا: الثنايا: المواضع في أعلى الجبل أراد أنه يقتحم الشدائد.

قبَّح الله بني أمية، حيث تستعمل مثلَ هذا على العراق. حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي: ألا أحصبُه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر.

فلمَّا رأى - يعني الحجاج - عيونَ الناس إليه حَسَر اللثامَ عن فيه، ونَهَض، فقال:

**أنا ابنُ جَلا وطلَّاعُ الثنايا ... متى أضعِ العِمامةَ تعرفوني**

ثم قال: «يا أهلَ الكوفة، أَمَا والله إني لأحملُ الشرَّ بحمله، وأحذوه بنعلِه، وأَجْزيه بمثله. وإني لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤوساً قد أَيْنَعَت[١]، وحان قطافُها، وإني لصاحبُها. وكأني أنظرُ إلى الدماءِ بين العمائمِ واللحى تترقرق. ثم قال:

**هذا أوانُ الشدِّ فاشتدِّي زِيَمْ[٢] ... قد لَفَّها اللَّيْلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ[٣]**
**ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وَضَمْ[٤]**

ثم قال:

**قد لَفَّها الليلُ بعَصْلَبيٍّ[٥] ... أروعَ[٦] خرَّاجٍ من الدَّوِّيِّ[٧]**
**مهاجرٍ ليْس بأعرابيّ**

ثم قال:

**قد شمَّرتْ[٨] عن ساقِها فشُدُّوا ... وجدَّتِ الحربُ بكم فَجِدُّوا**
**والقوسُ فيها وترٌ عُرُدُّ[٩] ... مثلُ ذِراع البَكْرِ[١٠] أو أَشَدُّ**
**لا بُدَّ مما ليسَ منه بُدُّ**

إني - والله - يا أهلَ العراق، ومعدِنَ الشِّقاقِ والنِّفاق، ومساوي الأخلاق، ما يُقْعَقَعُ لي بالشنان[١١]، ولا يُغْمَز جانبي كتَغْمازِ التين. ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء[١٢]، وفُتِّشْتُ عن تَجْرِبة، وجَرَيْتُ إلى الغاية القُصْوى. وإن أمير

(١) أدركت ونضجت.
(٢) اسم للحرب.
(٣) يحطم كل شيء يمر به.
(٤) ما وُقي به اللحم من الأرض.
(٥) الشديد.
(٦) مُعجب أو يفزع الناس هيبة له.
(٧) الأرض الفضاء.
(٨) الجد في الأمر والاجتهاد له.
(٩) غليظ شديد.
(١٠) شبه الوتر بذراع البعير في توتره.
(١١) ج شن: القربة البالية اليابسة.
(١٢) فرّ عن الشيء: فحص عنه وكشفه.

المؤمنين - أطالَ الله بقاءَه - نثر كنانتَه[١] بين يديه، فَعَجم[٢] عيدانَها، فوجَدني أمرَّها[٣] عُوداً، وأصلبَها مَكْسِراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أَوْضَعْتم في الفِتن، واضطجعتم في مَراقدِ الضلال، وسَنَنْتُم سُنَن الغيِّ.

أما والله لأَلْحُونَّكم لَحْوَ[٤] العصا، ولأَقْرَعنَّكم قَرْع المَرْوة[٥]، ولأعصِبنَّكم عَصْبَ[٦] السَّلَمة[٧]، ولأَضْربنَّكم ضرْبَ غرائبِ الإبل، فإنكم لَكَأهلِ ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١١٢].

وإني والله لا أعِدُ إلَّا وَفَيْتُ، ولا أهُمُّ إلا أَمْضَيْتُ، ولا أَخْلُقُ[٨] إلَّا فَرَيْتُ[٩]. فإيَّايَ وهذه الشُّفعاءَ، والزَّرافاتِ والجماعات، وقالاً وقيلاً، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟

أَمَا والله لتستقيمُنَّ على طريق الحقِّ، أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده.

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أَعْطِياتِكم، وأن أُوَجِّهكم لمحاربة عدوِّكم مع المهلَّب بن أبي صُفْرة، وإني أقسم بالله لا أجدُ رجلاً تخلَّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلّا سفكتُ دمَه، وأنهبتُ مالَه، وهدمتُ منزلَه».

## ٢- مناسبتها

بعد أن قتل عبدُ الملك بنُ مروان مصعبَ بن الزبير سنة ٧١هـ لم يبق ممَّا يؤرِّقُه غيرُ اعتصام عبد الله بن الزبير في الحجاز، وحوله جلَّةُ التابعين والناقمين على بني أمية. فأتاه الحجّاج بن يوسف الثقفي، وقال له: يا أمير المؤمنين، رأيتُ في المنام أني أخذتُ عبد الله بن الزبير فذبحتُه وسلختُه، فابعثني إليه.

---

(١) جعبة سهامه.
(٢) اختبر.
(٣) أصلبها.
(٤) قشر.
(٥) حجر يُقدح ويقرع لاستخراج النار منه.
(٦) قطع.
(٧) ضرب من الشجر.
(٨) أُقدّر.
(٩) أصلحت.

عقد عبد الملك الولاية على الحجاز للحجاج، وأنفذه إلى قتال ابن الزبير على رأس جيش من ثلاثة آلاف رجل أو ألفين، فحاصره في مكَّة، ورماها بالمنجنيق، فتفرَّق الناس عن ابن الزبير، وقاتل حتى قتل سنة [٧٣هـ]، فصلبه الحجاج، وأراح عبد الملك ممَّا كان يؤرّقه.

وحينما بطش الحجَّاج بأهل مكة والمدينة، وقمع المعارضة أصبحَ من أقرب الوُلاة إلى عبد الملك، فأنفذَه من المدينة إلى العراق والياً وقائداً ليخمد الخارجين على الأمويين من الشيعة والخوارج. قال ابن الأثير[١]:

«في هذه السنة - يعني سنة ٧٥هـ - ولَّى عبدُ الملك الحجَّاجَ بنَ يوسف العراقَ دون خراسان وسِجِسْتان، فأرسَل إليه عبدُ الملك بعهده على العراق، فسار في اثني عشرَ راكباً على النجائب، حتى دخلَ الكوفة حين انتشرَ النهارُ فجأةً - وقد كان بشرٌ بَعثَ المهلَّبَ إلى الخوارج - فبدأَ الحجاجُ بالمسجد، فصعد المنبر، وهو متلثِّم بعمامة خزٍّ حمراءَ، فقال: عليَّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجيةً، فهمُّوا به، وهو جالسٌ على المنبر، ينتظرُ اجتماعَهم. فاجتمعَ الناسُ، وهو ساكتٌ، قد أطال السكوتَ، فتناول محمدُ بنُ عُمَيْر حصباءَ، وأراد أن يَحْصِبه بها، وقال: قاتله الله، ما أغباه وأذمَّه! والله إني لأحسب خَبَره كَرُوائه. فلمَّا تكلَّم الحجاج، جعلت الحَصْباءُ تنتثرُ من يده، وهو لا يعقلُ به، ثم كشف الحجاج عن وجهه، وقال....».

لك أن تستنبط ممَّا روى المؤرّخون أن الأحوال السياسية التي رافقت خطبة الحجّاج ما سَبَقها وما لحقها كانت تنطوي على كثير من عوامل التصدِّي والتحدِّي، ومشاعر التوتُّر والتنمُّر، وبوادر الفتن المخوفة، وذكريات القمع المروِّعة، في نفوس الرعايا والرعاة على سواء، لكنها في نفوس الرعاة كانت أعنفَ وأضرى.

كان الأمراءُ والخلفاءُ يَخْشَوْن أن ينتقضَ البناءُ كلُّه أركاناً وجدراناً، وأن تقتلع العواصف المزمجرة هنا وهناك أوتادَ الدولة الأموية وأطنابَها، ولذلك قابلوا الأُهبة بالأُهبة، فبشرُ بن مروان [ت: ٧٥هـ] والي العراقين قبل الحجَّاج كان يُجَيِّشُ الجيوشَ، ويرسلُها تحت راية المهلَّب بن أبي صفرة إلى مرابضِ

(١) الكامل في التاريخ/ ٦٠٣.

الخوارج في أرباض العراق، وشيعةُ الهاشميِّين بعدما فُجِعوا بالحسين ﷺ كانوا يتظاهرون بالموادعة، وهم جمرٌ يتوقَّد تحت رماد، ونمر يتضوَّرُ للثأر، والحجازُ الذي ثكل خيرة التابعين كان يضمِّد جراحه، ويكظمُ نُواحه، وليس في صدره إلَّا بُغْضُ الأمويين ومن والاهم.

فكيف تعامل الحجَّاج، وهو يسير في حقول من الألغام تكنفُه من كلِّ جانب مع مَنْ يَتَحدَّوْنه؟

لم يعامل الحجَّاج أهلَ الكوفة بلسانه وبيانه فحسب، بل عاملهم بمواهبه كلِّها، كأنّه ممثلٌ قدير، يعرف كيف يعبّر بجوارحه عمَّا في جوانحه، أو أميرٌ خبيرٌ حنَّكته السياسةُ، فأضاف الخبرةَ إلى القدرة، وعرف كيف يتلاعب بنفوس المتمرِّدين، ويقلِّب قلوبهم بين أصابعه كيف يشاء. وأدلُّ ما يدلُّك على خبرته وقدرته أنَّ هيبته سرت في براجم الْبرْجُمي، فكادت يدُه تَشَلُّ، وتساقط الجمار من فروج الأصابع، وهو ساكت قانت، لا يدري كيف يواري ضعفه وخوفه.

### ٣- موضوعها

متى قرأتَ البيت الأول الذي قبسه الحجَّاج من شعر سُحيم بن وثيل اتَّضح لك موضوعُ الخطبة وهو: «التهديدُ والوعيدُ»، فإذا انتقلتَ من الشعر إلى النثر لم تتبدَّل الفكرة، بل زادتْ وضوحاً، وأخذ الحجاج يرسم ملامحَ النهج الذي يعتزمُ أن ينهجَه في إدارة العراق، وسياسةِ العراقيين.

جوهرُ هذه السياسة الحزمُ والبطش، وقطعُ الرقاب، وإراقة الدماء، وقمعُ المعارضة. ولمّا كانت هذه السياسة تحتاج إلى جَبَروت ورهبوت، فقد عاد الحجَّاج مرة أخرى إلى الشعر يستنبطُ منه هذه السياسة، لأن الشعر أوقعُ من النثر، فاقتبس مقطَّعات من أراجيزَ بدوية لرُوَيْشد بن رُمَيْض، تنطوي على عنف البداوة وعنفوانها، لكي يُرهب بهما العراقيين، ويهيِّئَ عقولهم لما جاء لتنفيذه.

ثم شَفَع الشعر الذي لا يملكُ بالأمر الرسمي الذي ملَّكه مقاليدَه عبدُ الملك بن مروان. وهذا الأمر يخوِّلُه سلطةً غير محدودة. فعبد الملك ما انتدبه إلا بعدما جرَّبه، والتجربة - كما يخيل إلينا - تعني ههنا فَتْكَ الحجاج بأهل الحجاز في حصار مكة، وصلب عبد الله بن الزبير، وهي أحداث مهولة تُرعب كلّ ثائر. فكأنَّه يقول للعراقيين: تصوَّروا العقوبة قبل أن ترتكبوا الجريمة.

واعلموا أنني جئت لأجتثَّ المعارضةَ من جذورها. وأن المعارض إذا أُخِذَ فلن تنفع فيه شفاعة. ولن يُقْبَلَ له عذرٌ، بل سيقالُ له: «على قومها جَنَتْ براقش، ويداك أوْكتا وفوك نفخ».

وقبل أن يشهرَ الحجاج سيفَ العقاب فوق الرقاب، شقَّ أمام المذنبين الطريق إلى التوبة، ووضع أقدامهم على بدايةِ الصراط المستقيم. فإن سلكوه نَجَوْا، وإن لم يسلكوا هلكوا. وظلَّ يُبْدِئُ ويعيد، ويكرّر التهديد ليرسِّخ في قلوبهم المتقلِّبة فكرة ثابتةً، ينوي ترجمتها ترجمةً عملية، وهي إقرارُ الطاعة للسلطة. وعَلَّلَ عزمه على القمع بتماديهم في الضلال، وشفع فكرته بآيةٍ من آي الذكر الحكيم، ليقنع أهلَ الكوفة بأن عاقبة البطر والأشر زوالُ النعمة وشيوعُ النقمة، والابتلاءُ بصنوف البلاء من جوعٍ وخوف، وقتل وتشريد.

وختم الخطبة بالغرض الأساسيّ الذي ندبه الخليفة لإنجازه، وهو أن يجنِّد العراقيِّين في الجيوش الأموية، ليحارب بسواعدهم وأموالِ عبد الملك خوارجَ العراق، ومَنْ يندبُهم لمحاربتهم حرباً مأجورةً برواتب سخية، فإن لم يصدعوا بما أُمِرُوا بعد أن يُؤْجَروا، فليعلموا أنَّ الحجَّاج سيقتلُ المتقاعِس والآبق بعد أن يصادرَ ماله، ويُخرِّب داره.

## ٤- سماتها الفكرية والفنية

حظي الحجاج في خطبه عامَّة، وفي هذه الخطبة خاصّة باهتمام النقاد قدمائِهم والمحدثين. أمَّا القدماءُ فمنهم من أطرى الخطيبَ وخطبه إطراءَ المعجب بأسلوبه المهيب، ومنهم من أزرى به إزراءَ الممتعض من إفراطه في العَسْف، ومبالغته في التهويل قولاً وفعلاً:

قال المبرِّد[١]: «كان الحجاجُ إذا صعد المنبر تكلّم رويداً، فلا يكاد يُسمع، ثم يتزيَّدُ في الكلام، حتى يُخرج يده من مِطْرَفِهِ، ويزجر الزجرةَ، فَيُفزِع بها أقصى مَنْ في المسجد». وقال الحسن البصري[٢]: «تشبّه زيادٌ - يعني زياد ابن أبيه - بعمر بن الخطاب فأفرط، وتشبَّه الحجاجُ بزياد، فأهلك الناس».

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر/ ٨٤.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٦٦.

وقال أيضاً[١]: «إنه يعظ عظةَ الأزارقة، ويبطشُ بطشَ الجبّارين» وقال مالك بن دينار[٢]: «ربما سمعت الحجاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهلُ العراق، وما صنع بهم، فيقعُ في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه، وحسن تخلُّصه بالحجج».

وأمّا المحدثون فقد أطالوا الحديث عن خطب الحجاج، وقرنوه بزياد ابن أبيه لتشابههما في القول والفعل، فكلاهما تولَّى العراق وبطشَ بأهله، وكلاهما أتقنَ الخطابة وتفنَّن في قوله. قال د. شوقي ضيف: «الحجّاجُ لم يكن يقلُّ عن زياد بياناً وإعراباً عمَّا يختلج في صدره، ولعلَّ أشهر خطبه تلك التي خطبها في الكوفة، حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك».

ويُخيَّل إلينا أنَّك لا تستطيع أن تظاهر أحد الفريقين إلّا بعد أن تقف على السمات الفكرية والفنية التي اتَّسمت بها خطبة الحجاج هذه. فما أبرز هذه السمات؟

١) **وحدة الموضوع**: لم يكن الحجَّاج غافلاً عمَّا كابد بنو أمية من ثورات تعاقبت في العراق، ومن فتن لا تكادُ تخمدُ حتى تشتعل. ولذلك أدار خطبته كلَّها حول فكرة واحدة، وهي قمعُ العنف بأعنفَ منه، ومحاربةُ القوة بأقوى منها، فأدار معاني الخطبة من بدايتها إلى نهايتها حولَ محور واحد، وهو تهديدُ العراقيّين، لا ليزجرهم عن معاداة الأمويّين وحسبُ، بل ليحوِّلهم من متمرِّدين إلى مؤيِّدين. فإن عجزتْ أقوالُه، رفدتها أموالُ الخليفة. وبهذه المعاني التي توعَّدهم بها، والأعطيات التي منَّاهم الظفرَ بها ضمن الوصول إلى غرضه.

وقد تأخذُ عليه التكرارَ، وإعادةَ الأفكار، ثمّ تعذُره لأمرين:

أولُهما أنَ الخطيب يحرصُ على أن يبلغ غايته، وغايةُ الحجاج أن يقمع شرّاً استشرى، وهذا الشرُّ المؤثَّل في النفوس يحتاجُ إلى مشارط ومباضع تستأصله، ثم تعاود استئصاله إذا نبت من جديد كيما تجتثَّه من جذوره، وخطورةُ الموقف لم تُتح للحجاج أن يُرْجئ عمل يومه إلى غده، فألحَّ ولم يبطئ، وأعاد ولم يتحرَّج.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٦٧.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٩٤.

والثاني أن المعاني - وإن تشابهت في الجوهر - مختلفةٌ في المظهر، لأن الحجَّاج كان يعرضُها بصور مختلفة فيخلعُ عليها ضرباً من الجدَّة، ويُذْهبُ عنها سأمَ التكرار.

**٢) تغليب التراث العربي على الفكر الإسلامي**: لم يتجلَّ في خطبة الحجاج فكرُ الإسلام كما تجلّى تراث العرب، فأنت لا تجد فيها، على طولها، حديثاً واحداً، أو بعضاً من حديث يُروى باللفظ أو بالمعنى. ولا تجد من القرآن الكريم غير آيةٍ ذُكرت على سبيل التمثيل، ولم تذكر لاستنباط حكم يحلِّل ويحرِّم، أو تقرير مبدأ سياسي يحدِّد طبيعة الحكم.

أمَّا التراث العربي فقد تجلَّى فيما أورده الحجَّاج من الشعر قصيده ورجزه، إذْ بدأ خطبته ببيت ولم يبدأها بحمد الله والصلاة على نبيّه، فجاءت أشنع بتراً من بتراء زياد ابن أبيه، وأوقح عجرفية وجاهلية منها، ثم احتجَّ باثني عشر بيتاً من مشطور الرجز.

قد تعلّل ذلك فتقول: ربّما كان لتحدُّر الحجاج من ثقيف التي كانت من أشد القبائل مقاومة للإسلام أثرٌ في زهده في الفكر الإسلامي. وأصحُّ من هذا القول أن تعلِّل هذه الظاهرة تعليلاً سياسياً، فتقول: إن الكوفة في ذلك الوقت كانت متشيِّعة، وتشيُّعُها وضعَ بين يديها من الحجج الإسلامية ما يُعادل حجج الحجاج أو ما يفوق حججه، ولهذا أغفل الخطيبُ الدفاع عن حقوق الأمويّين في الخلافة على أساس إسلامي، وقصر همَّه على قمع الفتن ونشر الأمن.

وممَّا يؤيِّد ما زعمنا أن الإمام شمس الدين الذهبي - على بُغضِه الحجَّاج - يذكر أنه كان يعظِّم كتابَ الله، فيقول[1]:

«كان ظلوماً جبَّاراً ناصبيّاً، خبيثاً سفّاكاً للدماء»، ثم يقول: «كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن» فهو إذن لم يُغفل الاحتجاج بكتاب الله لإعراضه عنه، بل لعلمه أن أهل الكوفة أقدرُ منه على استنباط الحجج من القرآن والحديث للدفاع عن أهل البيت، وعن حقهم في الخلافة.

ولو كانت خطب الحجاج كلُّها تجري على هذا النَّسَق، فتغلِّبُ الشعر على القرآن لكان لك أن تَتَّهمه بمخالفة ما دأبَ عليه خطباءُ العصر الأموي، أو ترميه

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣.

برقّة الدين. فهو في خطبة أخرى خطبها في البصرة يلتزم الرسم المتَّبع، فيحمد الله ويُثني عليه، ثم يبدأُ الخطبة بموعظة دينية، فيقول: «إن الله كفانا مؤونة الدنيا، وأمرنا بطلب الآخرة» ويختمها بأكثر من آية فيقول: «فاعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم ملاقوه ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣١] ألا وإن الخير كلَّه بحذافيره في الجنة، ألا وإنَّ الشرَّ كلَّه بحذافيره في النار، ألا وإن ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧-٨] وأستغفرُ الله لي ولكم».

والحجةُ الأخيرةُ التي تثبت أن الحجاج كان قائداً جباراً، وأميراً قديراً، همُّه الأولُ قمعُ الفتن، واجتثاثُ المعارضة، ولم يكن رقيق الدين، ولا مستهيناً بالكتاب المبين، أنَّ له خطباً من الوعظ الخالص. حتى إن ابن أبي الحديد المعروف بنزوعه إلى الاعتزال والتشيُّع روى خمس خطب من مواعظه، إذا قرأتها ظننت أنَّها من كلام الحسن البصري، أو مالك بن دينار لما فيها من الزهادة والعبادة وكره الدنيا.

٣) **الأسلوب الخطابي**: حَرَص الحجاج أشدَّ الحرص من الخطبة الأولى التي خطبها حينما وُلِّيَ العراقَ على أن يباغتَ العراقيين مُباغتةً تذهلُهم عمّا يراودهم من معاداة الولاة، وعلى أن ينزل عليهم نزولَ الصاعقة الماحقة، لكي يصبحوا بين يديه حيارى أو سكارى، وما بهم من حَيْرة ولا سكرة، وإنما هو الرعْبُ المفاجئ الذي يخلِّفهم كمن ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩]. فيغشاهم ما غشي ابنَ ضابئ البرجمي حينما شلَّتْ براجمُه، فأفلتتْ أصابعُه ما تقبض من جَمَرات الحصب.

ورأى أن خير الأساليب التي تبلِّغه مقصده في هذه الحرب النفسية أسلوبُ التقريع والوعيد والأسلوبُ الخطابيُّ الإنشائي المتواتر النبرات. فأكثرَ منه، ويتجلَّى هذا الأسلوب في طرائقَ متعدِّدة من التعبير المثير.

أوّلُها النداءُ، لأنه يوجِّه الكلام إلى السامعين توجيهاً مباشراً كما يوجه الملاكمُ الضربات إلى وجه خصمه. قال في بداية الخطبة: «يا أهل الكوفة...» ثم أخذ يمزج النداء بالسبّ الموقَّع توقيعاً عنيفاً، فقال: «يا أهلَ العراق، ومَعْدِن الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق».

وقوَّى كلامَه بالتحذير من التغرير، وبالأمر والنهي، والاستفهام الساخر الزاجر، فقال: «فإيّايَ وهذه الشُّفعاء، والزَّرَافات والجماعات، وقالاً وقيلاً، وما تقول؟ وفيم أنت وذاك؟».

وأكثر من القَسَم والتوكيد لما ينطويان عليه من تهديد ووعيد، ولما يبثَّانه في تضاعيف الخطبة من روح القوة، وشفع القسم والتوكيد بالخطاب لتكون الخطبةُ مسدَّدةً إلى صدور العراقيّين ونحورهم، فيحسُّ كلٌّ منهم أنه المقصود بالقول لا سواه. قال الحجَّاج: «أما والله لألحونَّكُمْ لَحْوَ العصا، ولأقرعنَّكُم قرع المروة، ولأعصبنَّكُمْ عصبَ السلمة..» وقال أيضاً: «أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق، أو لأدعنَّ لكل رجل منكم شغلاً في جسده» وقد ضارعه في هذا الأسلوب زياد ابن أبيه، فكانا في العصر الأموي فرسيْ رهان في حلبات الخطابة.

٤) **من الإيجاز إلى الإطناب**: كان الخطباءُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة يُؤْثرون الإيجاز على الإطناب. فلمَّا اعتلى المنابر عليُّ بن أبي طالب - كرَّم الله وجهه - كانت الفتنة الكبرى تعصف بالعالم العربي، ثم تتحوَّل من هيجة رعناء، تبحث عن زعماء وخطباء، إلى أحزاب سياسية، لها زعماؤها وخطباؤها، فإذا هو مُضطرٌّ إلى التطويل والتفصيل ليحاور منافسيه على النحو الذي يتبدَّى في خطبته الشقشقية.

وفي العصر الأموي وقفَ هذا الموقف زياد ابن أبيه، والحجَّاج بن يوسف الثقفي فاضطرا إلى الإطناب في خطبهما السياسية. واتخذ الإطناب عند الحجّاج شكلين:

أولهما تطويلُ الشواهد التي يظاهر بها أفكاره، إذْ احتجّ بثلاث أراجيز، تُغْني إحداهن عن الأُخْرَيَيْن، لكنه تعمَّد أن يصفع بهن جميعاً مسامعَ القوم ليصكَّها صكّاً مُفْحِماً، فتكتم الامتعاض، ولا تجرؤ على الاعتراض.

وثانيهما عرضُ المعنى الواحد بعباراتٍ عديدة، تختلفُ مبانيها، وتأتلفُ معانيها، من ذلك قوله: «أما والله لأَلْحُونَّكم لَحْوَ العصا، ولأَقرعنَّكم قَرْعَ المَرْوَة، ولأعصِبنَّكمْ عَصْبَ السَّلَمة، ولأَضْربنَّكم ضرْبَ غرائبِ الإبل» فتقشيرُ العصا فيه ما في ضرب الصخرة من الشدة، وتهشيم الشوك يعني ما يعنيه سوقُ الجمال بالوكز من الضرب والعنف.

وعلى الرغم من التطويل لا يضيق السامع أو القارئ بما يسمع أو يقرأ لما في كلام الحجاج من جزالة اللفظ وفحولة التركيب وإشراق البيان.

٥) **عمق العواطف وصدقها**: إذا قرنت ضروب المنثور بعضها ببعض وجدت الخطابة من أقدرها على إثارة المشاعر وتفجيرها، فهي لا تكتفي بمخاطبة العقول، بل تخاطب العقول والقلوب معاً. والحجاج كان من أبرع الخطباء في تفجير العواطف من المواقف، والسيطرة بها على الجماهير، وخطبته في الكوفة تمثل هذه الموهبة أحسن تمثيل، إذ سلك فيها الخطيب سبلاً عديدة أفضت به إلى أعصاب الناس فهيمن عليها.

أول هذه الأساليب التمثيل، حتى ليخيل إليك أنه اتخذ للمسرحية أهبتها من لباس وسلاح وحركات وصمت ووقار وتشويق ومفاجأة.

وثانيها اللغة الجزلة والجمل القصيرة المقطعة تقطيعاً صوتياً متوازناً، الموقعة توقيعاً صارماً حازماً.

وثالثها اختياره أراجيز فخمة الألفاظ، مجلجلة الأصوات، قوية القوافي، شُدّد فيها أحرف الرويّ تشديداً مدويّاً أو مقلقلاً، من نحو: عصلبيّ دوّيّ، عردّ، بدُّ، فعبَّر إيقاعُها عن إصرار الحجَّاج على البطش، وترجم عزيمته الصلبة، وحماسته الغضوب، وجفوته الأعرابية. فكلما دوى حرف الروي في حلقه أو تقلقل خفقت له قلوب القوم، كأنهم يصغون إلى قصف الرعد.

ورابعها المناقلة بين الترغيب والترهيب، إذْ رغَّبهم مرة في الأعطيات، ورهّبهم مرة من أن تُسْفك دماؤهم، وتحرق دورهم، فلم يجدوا مناصاً ينوصون إليه، أو عذراً يتغمّدون به الجُبْن والنكوص.

٦) **التعبير بالتصوير**: قد تنكر على الحجاج الجدارةَ بالإمارة، والمهارةَ في الإدارة، والبراعةَ في تنظيم الريِّ والزراعة، ولكنَّك لا تستطيعُ أن تُنكر موهبتَه الأدبية الفذَّة. وقد تُبْغِضه كما أبغضه الإمام شمسُ الدين الذهبي، فتقول كما قال[1]: «من سوء سيرته حِصارُه لابن الزبير بالكعبة، ورميُه إيّاها بالمنجنيق، وإذلالُه لأهل الحرمين»، ولكنّك تقول أيضاً كما قال: «وله حسناتٌ مغمورة في بحر ذنوبه».

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٤.

وههنا حَسْبُ الحجَّاج الأديب الخطيب أن تذكر له حسنةً واحدةً، وهي «التعبيرُ بالتصوير» فأنتَ لا تقرأُ سطراً واحداً من خُطبته إلا تراءى بين بدايته ونهايته شريطٌ من صُوَرٍ حيَّة متحركة ملوَّنة قد تجانستْ وتكاملتْ وأخذ بعضُها برقاب بعض، بلا تنافر ولا نشوز. وعن تكاملها في الخطوط والظلال، والقسمات والسمات ينجم تكاملٌ نفسيٌّ رفد تكاملها الفني. فإذا هما يشتركان في بثِّ الروع والرعب، ويتعاونان على ترهيب الجمهور.

الأعناقُ تتطاول فَتَلْتَقِفها السيوفُ، والرؤوسُ تشمخ كأنها ثمارٌ ناضجة، فتقتطفها الصوارم، وبين اللَّقْف والقَطْف تجري الدماءُ من النحور إلى الصدور مترقرقةً أو متدفّقةً لترسم المشهدَ الأول من مشاهد البطش المتوقَّع.

وعبد الملك بن مروان فارسٌ، حنَّكته التجارب، ودرَّبته الحروب، فاكتسب الخبرةَ بالرجال والسلاح. إنّ ولاته في قبضته سهامٌ في جعبته، بعضُها أصلبُ من بعضها، ولكي يميز الخليفة أقدر الولاة من سواه يكلّفه أشقّ المشاقّ، كما يُماز أقوى الرماح بالأَطْر بُغية الكسر. والحجاج أُطِر وما كُسِر. وهذا هو المشهد الثاني.

والشريطُ الثالث أجملُ من سابقَيْه وأكملُ. فالفِتنُ مفازةٌ مخوفةٌ، يوغل فيها أهل الكوفة على غير هدى، ولا بصيرة، والضلال مضجعٌ وخيم، يغطُّون فوقه غطيطَ السكارى، فيأتي الحجَّاجُ ليردَّهم عن ضياعهم وضلالهم ويوقظهم من غفوتهم، فيكشف عنهم قشور الفجور كما يكشفُ اللحاء عن العود، ويقرعهم بالسياط كما تقرع الإبل، ويضربُهم بالعصيِّ كما يُخْبَط الشجرُ الشائك بالمخابط، فيتجرَّد من شوكه.

٧) **بوادر الصنعة**: لا يرتاب أحدٌ ممَّن يُحبُّون الحجّاج وممَّن يكرهونه في أصالته وبيانه. حتى الإمامُ الذهبيّ الذي قال فيه: «نَسُبُّه ولا نُحبّه. بل نبغضُه في الله» قال فيه أيضاً: «كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة». لقد شهد له بالدهاء والذكاء، وأقرَّ بأنه كان فصيحاً بليغاً.

وفصاحة الحجّاج وبلاغته ليستا مكتسبتين كفصاحة عبد الحميد الكاتب وبلاغته، وإنما هما طبع لا صنعة، وفطرة شفعتها الخبرة، وموهبة أصيلة لم يزدها الاكتساب وحفظ الشعر والقرآن إلا صقلاً ونبلاً. إنه لم يخرج عمَّا بلغنا

من فحولة الخطباء في عصر النبوة والخلافة الراشدة، أو عن إرسال الكلام على الطبع والسجية في أكثر خطبه وتزيينه ببعض البديع في أقلِّها، لأنه ظلَّ محافظاً على بداوته في القول والفعل على سواء.

إنه لم يكد يبدأ الخطبة بجمل متوازنة مسجوعة فيقول: «أحمل الشرّ بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله» حتى عاد إليه طبعه، فاسترسل استرسال الجواد في المضمار، لا يعثر ولا يكبو، ولا ينطفئ بيانه الفطري ولا يخبو.

ومن الملاحظ أنه يجعلُ الجمل المسجوعة في بدايات الفقرات. فهو بعد أن أنشد الرجز، والتفت إلى أهل العراق ليخاطبهم خاطبهم بالسجع فقال: «يا أهلَ العراق، ومعدِن الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق» ثم أرسل كلامه عُطلاً من الزينة. وبعد أن تلا آيةً من كتاب الله، وأراد الانتقال إلى فقرة أخرى يهدِّد فيها أهل الكوفة زيّن البداية الجديدة بشيء من السجع والتوازن فقال: «لا أعد إلا وفيتُ، ولا أهمُّ إلا أمضيتُ، ولا أخلق إلّا فريتُ»، ثم استرسلَ كرةً أخرى.

وبعدُ..

فإن هذه السمات السبع ليست وقفاً على الخطبة السابقة وحدها، ولا على خطب الحجَّاج خاصَّة، وإنما هي سماتٌ عامة، تكاد تشيعُ في خطب العصر الأموي كله. تلقاها كلَّها أو جلَّها في خطب زياد ومعاوية وعبد الملك على تفاوت يسير بين خطبة وأخرى، وخطيب وآخر، كتغليب سمة على سمة، أو بروز سمة وضمور أخرى. ولهذا استغنينا بها عن دراسة السمات العامَّة في خطابة العصر الأموي لئلا نُثقل الكتاب بالتكرار.